اخترنا لك ...

١٥

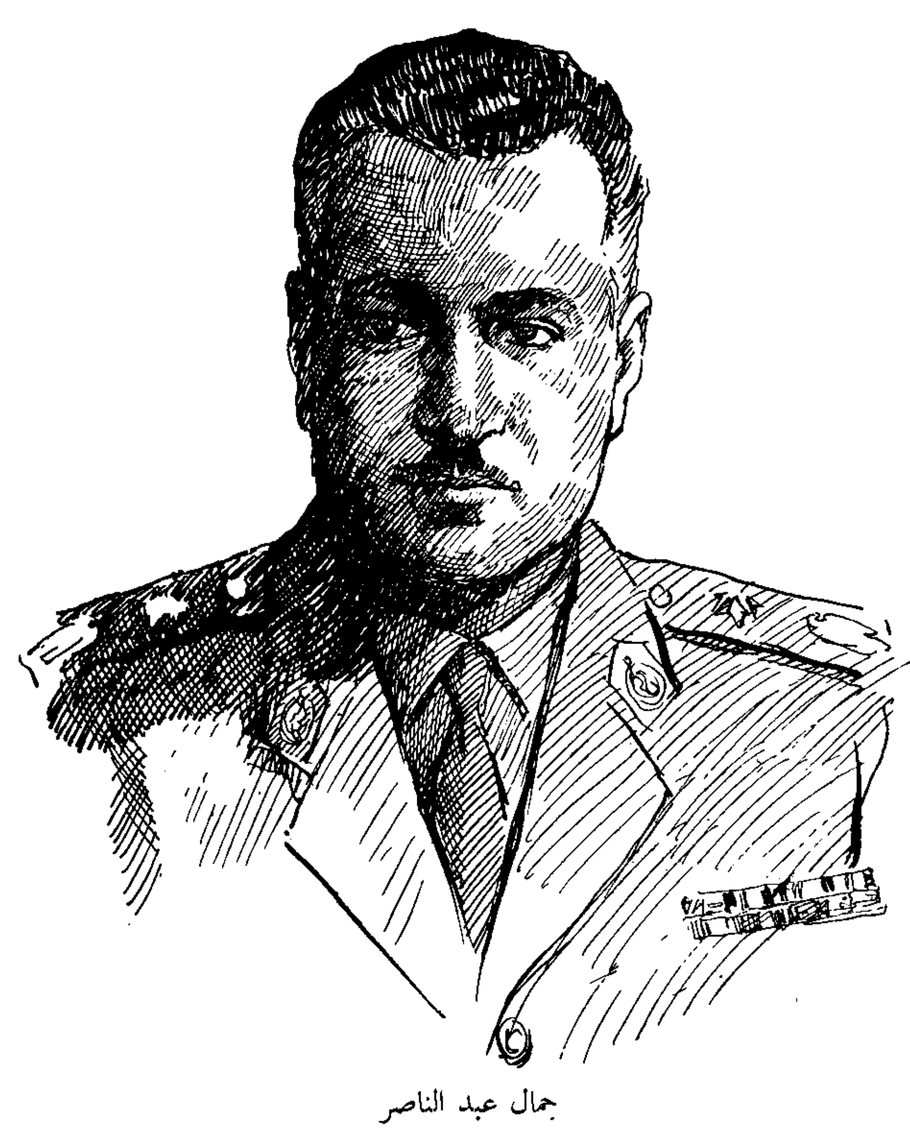
الهند والغرب

تأليف

علي أدهم

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

كفاح الهند الحديثة

بقلم

جمال عبد الناصر

منذ إقدام بريطانيا على احتلال الهند احتلالا مسلحا سنة ١٧٥٧ م على يد القائد الإنجليزى روبرت كلايف حاكم البنغال، وتتابع فتوحها فى شبه القارة الهندية حتى أخضعتها جميعا — والهنود يترقبون الظروف المناسبة للانتقاض على هذا الاحتلال — وقد واتت الهند الفرصة فى سنة ١٨٥٧ م فقامت بثورتها الاستقلالية الكبرى التى تجلت فيها وطنية الهنود، وقوة اتحادهم، وعظمة كفاحهم؛ فقد كانوا أقرب إلى النصر المؤزر، وأوشك استقلالهم أن يكون حقيقة واقعة لولا بوادر الانقسام التى بدت وروح الفرقة التى أخذت تهب فى محيط المواطنين؛ مما كان له أثره فى رجحان كفة الجبهة الإنجليزية وتوطيد أقدامها فى الهند؛ وكان من نتائج إخفاق هذه الثورة إعلان الإنجليز تبعية الهند المباشرة للتاج البريطانى سنة ١٨٥٨ م.

ومنذ ذلك التاريخ، والهند تعمل ما وسعها العمل للتحرر والاستقلال، وظهر فيها زعماء وطنيون متطرفون من أمثال (تيلاك) الزعيم الهندى الثائر.

وقد قوى هذه الروح المعنوية انتصار اليابان على الروس سنة ١٩٠٤م

هذا الانتصار الذى كان له دويه فى الهند ، وفى الشعوب الأسيوية ، وفى صفوف المطالبين بالحريات .

ثم كان أن ظهر فى جو شبه القارة عامل خطير كان نقطة التحول فى مستقبل الهند ؛ هذا العامل الجبار هو الزعيم غاندى .

ذلك الرجل الذى سبقه إلى الهند كفاحه فى جنوب إفريقية ، ودفاعه عن الملونين الهنود ، ورفعه علم الثورة على التمييز العنصرى ، والتفرقة فى المعاملة بين الأجناس البشرية .

ذلك الزعيم الذى احتمل السجن ولقى سوء المعاملة على ثقافته الرفيعة ، وعقليته الممتازة ونبوغه الفذ .

لقد حل فى وطنه الأصيل ، فقابل مشكلة من أعقد المشكلات ؛ تلك هى مشكلة الفلاح الهندى الذى كان يلقى العناء والعنت والسخرة من الإقطاعيين ؛ فانتقل بنفسه وأعوانه إلى القرى الهندية وأخذ يدعو هؤلاء الإقطاعيين إلى أن يوفروا للأجراء من الفلاحين والعمال عيشا كريما يليق بآدمية الإنسان ؛ بالحسنى مرة وبالتهديد مرات ، حتى ، نجحت دعوته ، وصادفت هوى فى النفوس .

هذا الرجل الذى إن شئت أطلقت عليه وطنيا أو زعيما أو قديسا أو شهيدا من غير أن تخطئ القصد فإن فيه جماع كل هذه السمات .

لقد استطاع هذا الرجل الأعزل أن يتغلب على الحديد والنار ، وعلى التعصب الناشب بين الطوائف الهندية ؛ وكيف أتيح له هذا الانتصار الذى لم يشهد التاريخ له قرينا ؟

لقد انتصر بقوة روحه ، وسمو معنويته ، وشرف نضاله .

وتلك آية الآيات على الزعامة الحقة .

فقد حطم الاستعمار الاقتصادى بمغزله .

وحطم الاستعمار السياسى بصومه حتى الإشراف على الموت .

وقضى على الفتنة الصاخبة بضربه المثل الأعلى فى المحبة ونكران الذات ؛ لقد ظل غاندى حيا حتى شهد انتصار مبادئه ، واستقلال بلاده .

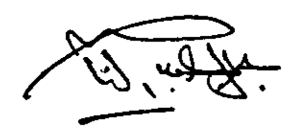
وراح غاندى صريع العصبية الممقوتة ، فأصبح فى عداد الشهداء .

راح غاندى ، ولكن مثله العليا فى سبيل الحق والمحبة والسلام لا تزال باقية حتى اليوم تهتدى بها أجيالنا بل أجيال البشرية فى عصور التاريخ القادمة .

إن دولا قد خلقت زعماءها فجعلت منهم أبطالا ؛ وأما الهند فقد خلقها غاندى وجعل منها شعبا موحدا ، له أهداف ومثل .

فسلام على غاندى فى نضاله فى سبيل إعزاز مبادئه .

وسلام عليه فى كفاحه فى سبيل الحرية .



الهند والغرب

تمهيـــد

شقيت معظم أنحاء العالم فى العصور الحديثة ، من عدوان الاستعمار وعجرفته وطغيانه ، وحبه للغلبة والاستعلاء ، وجشعه وإمعانه فى الإذلال والاستغلال ، وتنكره فى انتهاج هذا الطريق للمبادىء الإنسانية وإهداره للقيم الأخلاقية ، وكان للشرق بوجه خاص نصيبه الوافر من جراء ضراوة الاستعمار وسعار مطامعه وسوء مكايده ، وقد أصاب الهند من عدوان الاستعمار أكثر مما أصاب غيرها من الأمم الشرقية الأسيوية ، وفى ذلك يقول المؤرخ البريطانى والفيلسوف السياسى الاجتماعى أرنولد توينبى فى مستهل المحاضرة الثالثة من محاضرات رايث التى أذاعها فى خلال سنة ١٩٥٢ « فى احتكاك الهند بالغرب كانت تجربة لم يشاركها فيها أى مجتمع آخر فى الدنيا ، فالهند عالم قائم بنفسه ، وهى مجتمع فى ضخامة مجتمعنا الغربى ، وهى المجتمع الوحيد العظيم غير الغربى الذى لم يهاجم ويستهدف للطغيان فحسب بل داسته أقدام جيوش الغرب وغزت دياره ، ولم تغز دياره جيوش الغرب فحسب بل سيطر عليه بعد ذلك إداريون غربيون ، ففى البنغال استمر هذا الحكم الأجنبى قرابة مائتى سنة وفى البنچاب نيف على مائة سنة ، فتجربة الهند للغرب كانت أشد إيلاماً وأكثر إذلالاً

من تجربة الصين وتركيا وأقسى من تجربة روسيا واليابان » .

والواقع أن للاستعمار بالهند قصة حافلة بالتجارب المرة ، والعبر الصالحة ، والعظات النافعة ، وفى جهاد الهند للخلاص من إسار الاستعمار ورفع نيره وصدع أغلاله صفحات مشرقات لامعات جديرة بأن تعيها الإنسانية ، ويحرص عليها التاريخ ، وقبل أن نشرع فى سرد القصة ورواية حوادثها سنصف وصفاً موجزاً صورة الهند الجغرافية لبيان طبيعة المسرح الذى وقعت فيه الحوادث ، ونلم إلمامة سريعة بتاريخها لبيان طبيعة الموقف حينما بدأ الاستعمار يدخل الهند فى حسابه ، ويؤثرها بلفتاته ، ويوجه إليها حملاته وغزواته .



أفغانستان
كشمير
پنجاب
پبسو
نيودلهى
راجستان
اوتار پرادش
بهوتان
آسام
بهار
كوتش
ماديا بهارات
بنغال الغربية
كلكتا
ساوراشترا
ماديا پرادش
ناجبور
أوريسا
حيدر آباد
حيدر آباد
بومباى
اندرا
ميسور
بنجالور
مدراس
خليج بنغال

خريطة الهند

الموقع الجغرافى

الهند بلاد فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف يبلغ اتساعها قرابة مليونى ميل مربع ، فهى ثلثا الولايات المتحدة فى مساحتها ، وهى أكبر عشرين مرة من بريطانيا العظمى التى ظلّت صاحبة السيادة عليها ردحاً من الزمن ، ويسكنها ثلاثمائة وعشرون مليوناً من الأنفس ، وهو عدد يبلغ خمس سكان الأرض جميعاً .

وبلاد الهند شبه جزيرة ناتئة من وسط آسيا الجنوبية ، وضاربة فى المحيط الهندى ، تحدها شمالاً جبال الهيملايا ، وهى أضخم سلاسل جبال العالم وأعلاها ، وجبال قره قرم ، ويحدها من الشمال الغربى جبال هندوكش ، وقد كانت جبال الهيملايا هى الحاجز الذى فصل الهند خلال تاريخها الطويل عن آسيا الوسطى ، وهى ما تزال حتى اليوم سداً منيعاً يعوق تقدم الجيوش الحديثة ، ويقى الهند إلى حد بعيد الغارات المفاجئة ، ويحد الهند شرقاً خليج البنغال ، ويحدها غرباً بحر العرب ، ويلتقى ساحلها الشرقى بساحلها الغربى فى أقصى الجنوب من جهة المحيط الهادى ، ومن طبيعة هذا الموقع أن يجعل للهند مركزاً ممتازاً فى مياه المحيط الهندى ، ويصلها بإيران وشبه جزيرة العرب وإفريقية من ناحية الغرب ، كما يصلها ببورما وجنوب شرقى آسيا وجزر الأرخبيل وأستراليا من الناحية الشرقية .

ويبلغ أقصى طول الهند من رأس كومورين فى الجنوب إلى بلاد كشمير فى الشمال ١٩٠٠ ميل ، ومن مصب نهر السند فى الغرب إلى الجبال الواقعة شرقى نهر براهما بوترا ١٥٠٠ ميل ، وهذا الامتداد العظيم والاتساع الشاسع مع بطء وسائل المواصلات حتى قبيل العصر الحديث كان يوحى إلى الهنود فكرة اللا نهاية ، ويكاد يلغى فكرة الزمن المحدود ، وقد كان لهذا الإيحاء أثره فى التفكير الهندى ونشوء الفلسفات والمعتقدات الهندية .

والجزء الشمالى من الهند يتعرض للرياح الباردة التى تهب عليها جبال الهيملايا ، كما يتعرض للضباب الذى يتكون حين تلتقى هذه الرياح الباردة بشمس الجنوب ، وقد تكونت فى البنچاب بفعل الأنهار سهول خصيبة عظيمة لا نظير لها فى خصوبتها ، ولكن فى جنوب أودية تلك الأنهار تشتد حرارة الشمس فى الصيف والشتاء .

وفى الثلث الجنوبى من الهند يقع إقليم الدكن حيث تزداد حرارة الشمس جفافاً إلا إذا لطفتها نسمات تهب عليها من البحر ، ولكن الحرارة بوجه عام هى العنصر الرئيسى السائد من دلهى إلى سيلان ، تلك الحرارة المنهكة للأبدان والتى تغرى بالإمساك عن الحركة والاسترسال فى التأملات

وفى الهند نهران عظيمان ينبعان من جبال الهيملايا ، وهما نهر السند ونهر الكنج ، ويصب أولهما فى بحر العرب ويصب الثانى فى خليج البنغال بعد أن ينضم إليه نهر براهما بوترا الذى يأتى من التبت ماراً بآسام .

وفى جنوب سهول الكنج ونهر السند تمتد من الشرق إلى الغرب جبال

وندیا التی تفصل الهند إلى الهندستان فى الشمال والدكن فى الجنوب ، وهى جبال كثيرة الغابات ، وترتفع فى بعض نواحيها إلى خمسة آلاف قدم ، وهى حاجز طبيعى ، ولكنه حاجز لا يصعب التغلب عليه ، وهى تمتد إلى الجنوب حتى تنتهى بهضبة متوسط ارتفاعها ألف قدم ، وهذه الهضبة تنحدر بوجه عام من الغرب إلى الشرق ، ومعظم أنهارها تجرى من الغرب إلى الشرق ، وترتفع من هذه الهضبة جبال الغات الغربية التى تعوق النفاذ السريع إلى البلاد من الناحية الغربية ، وشاطئ مدراس الممتد شرقاً أيسر وصولاً وأقل عقبات .

وقد كان لهذه الملامح الجغرافية أثر كبير فى حياة الهند وتاريخها ، وقد عاش العدد الأكبر من سكانها فى السهول الشمالية أو ما يسمى « الهندستان » ، وهناك صميم الهند وقلبها النابض ، وكان اختراق هذه السهول أو زرعها أيسر وأجدى على الإنسان من التغلغل فى هضبات الجنوب القحلاء نسبياً .

وتنتشر فى أرجاء البلاد هنا وهناك غابات بدائية ترتع فيها النمور والفهود والذئاب والثعابين ، وتكاد الهند أن تكون قارة بأسرها لما فيها من كثرة السكان ، وتعدد اللغات ، واختلاف الأجواء والفنون والمذاهب والعقائد والفلسفات ، وعزلة الهند عن داخل القارة الأسيوية مكنتها من الاحتفاظ بطابع خاص فى مظاهر حياتها وأدوار تاريخها ، ولكن عزلتها من ناحية الشمال الشرقى تختلف عن عزلتها من ناحية الشمال الغربى ، فقد كانت جبال الهيملايا فى مختلف العصور عائقاً طبيعياً دون اتصال الصين بالهند

أما جبال هندوكش فقد تخللتها بعض الممرات التى ساعدت على تدفق المهاجرين والغزاة إلى سهول الهند ، وأكثر الفاتحين جاءوا إلى الهند من الشمال الغربى عن طريق سلسلة الممرات المعروفة ، وبخاصة ممر خيبر الذى يصل الهند بأفغانستان وآسيا الوسطى .

لمحات من تاريخ الهند

يبدأ تاريخ الهند فى شمالها الغربى ، فحوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل بناء هرم مصر الأول ازدهرت فى حوض نهر السند حضارة راقية ، ويرجع عصر هذه الحضارة إلى عصر ظهور الحضارات فى مصر وأشور وبابل ، وبالرغم من احتكاك هذه الحضارات بعضها ببعض فإنه لا يمكن حتى اليوم أن يبت فى مسألة بدء نشأة كل حضارة من هذه الحضارات ، فهل نشأت كل حضارة من هذه الحضارات مستقلة عن الأخرى أو تأثرت فى نشأتها بعناصر من إحدى الحضارات الأخرى التى عاصرتها ؟

والمعلوم من تاريخ الهند القديم بطبيعة الحال أقل بكثير من المجهول ، وهذا القليل المعلوم تتخلله فجوات واسعة لا تمكن المؤرخ من أن يكون صورة عامة موحدة متماسكة .

وقد قدم الهند من آسيا الوسطى عن طريق الممرات الشمالية الغربية جماعات من القبائل الآرية ؛ وربما كانت الأسباب التى دفعتها إلى تلك الرحلة جفاف المراعى ، وبعض هذه القبائل الآرية اتجه إلى بلاد اليونان واستطاع فى مدى قصير أن يوجد حضارة من أسمى الحضارات ، والفريق الذى دخل الهند استطاع أن يسجل مغامراته فى الأناشيد القبلية المعروفة باسم « الڤيدا » وهى من أقدم الآثار الأدبية العالمية .

وقامت حروب بين القبائل الآرية القادمة من الشمال الغربى والسكان الأصليين المقيمين فقد فيها السكان الأصليون السود البشرة سيطرتهم على وادى نهر السند ، وتحكمت العوامل الجغرافية فى طريقة تقهقرهم وانسحابهم فلم يكن فى وسعهم الاتجاه إلى الجنوب أو الجنوب الشرقى ، لأن صحراء التار وجبال ونديا كانتا تعترضان طريقهم ، ولذلك اتجهوا إلى الشرق ، وحاول بعضهم أن يذود عن المرتفعات بين حوض نهر السند وحوض نهر الكنج ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات على مدى الأيام ، ولا ريب فى أن الكثير منهم قتل وأسر وغلب على أمره ، واتجهت شراذم منهم شرقاً فى محاذاة نهر الكنج حتى تقطعت بهم الأسباب أو لاذوا بسفوح الهيملايا وسفوح جبل ونديا أو تسربوا خلال ثغرات تلك الجبال إلى جنوب الهنـــد .

وكانت هذه القبائل الغازية من البدو الرحل ، ولكنها ألفت الإقامة فى السهول ، واستقر بها النوى ، وقد أثرت فى حياة الهند وحضارتها تأثيراً بعيد المدى ، فقد أدخلت إلى الهند اللغة السنسكريتية ، وهى لغة تشبه فى أصولها الأساسية اللاتينى واليونانى والفارسى القديم ولغة القوط ولغة السلتيين ، مما يدل على أن هذه اللغات مشتقة من أصل واحد ، وقد تفرعت من اللغة السنسكريتية جملة لغات فى الهند منها اللغة الهندية والماراثية والبنغالية ، والجوجراتية ، ومن الاحتكاك بين هؤلاء الآريين والأقوام الخاضعين لهم نشأت الديانة الهندوسية ، وتكون المجتمع الهندوسى ، وقد ظلت الديانة الهندوسية تحكم الهند من الناحية السياسية حتى القرن

الثالث عشر الميلادى ، ولما انتقلت السلطة السياسية إلى أيدى المسلمين الفاتحين ظلت الديانة الهندوسية من الناحية الاجتماعية مسيطرة على سلوك معظم السكان .

والهندوسية أسلوب فى الحياة كامل مستوفى أكثر مما هى مجموعة من العقائد والمعتقدات ، وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن ، وليست لها صيغ محددة المعالم ، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة ، ولكل من آلهتها المعبودة صفاته ومميزاته ، من براهما الخالق الأسمى إلى فشنو الحافظ وسيفا المدمر وناكشيم آلهة الثروة ورود إله المطر ، والهندوسى يعتقد أنه يولد فى هذه الأرض ويعاد ميلاده مرات ، وميلاده الجديد متوقف على سلوكه فى ميلاده القديم ويظل يتكرر حتى يتحسن ويتهذب ويصل إلى النروانة أو السعادة الأبدية والراحة الكبرى ، ويفنى فى الذات العليـــا .

وقد لا يكون من السهل تفهم العقائد الهندوسية ، ولكن ما يعمله الهندوسى فى حياته اليومية قد رسمت له حدوده موضحة مفصلة ، وأوضح خصائص الهندوسية هى نظام الطبقات ، والطبقة عند الهندوسين مجموعة اجتماعية يحتم عضويتها ميلاد الإنسان ، والمفروض أن يعيش كل فرد فى حدود طبقته ، ولا يستطيع الزواج خارج هذه الطبقة ، واختياره للمهنة التى يباشرها لا يكون إلا فى حدود طبقته ، ونظام الطبقة هو الذى يملى عليه أنماط حياته ويفرضها عليه فرضاً .

وفى العصر الحاضر يحوى المجتمع الهندى عدداً كبيراً من الطبقات والظاهر أنها كانت فى الأصل قليلة العدد ، فكانت هناك طبقة البراهمة أو طبقة رجال الدين ، وطبقة الشاترى أو طبقة المحاربين ، وطبقة الفيشا أو طبقة التجار ورجال المال والزراعة وطبقة السودرا أو طبقة العبيد .

ولا نزاع فى أنه قد حدث تفريق طبقى بين الغزاة الفاتحين البيض البشرة وبين السكان الأصليين السود البشرة الذين غلبوا على أمرهم ، ومن بين هؤلاء المغلوبين الجماعات التى عهد إليها فى القيام بالأعمال الحقيرة التى يترفع عن القيام بها السادة الغالبون ، وواضح من ذلك سبب نشأة طبقة المنبوذين التى تبلغ حوالى خمسين مليون نسمة .

تراث الهند السياسى

ماضى كل أمة من الأمم له أثر كبير فى حاضرها ، وفى بعض الأحيان يكاد يسيطر الماضى على الحاضر ويوجهه ، ولا تشذ الهند عن هذه القاعدة ، فلماضيها أثر أيما أثر فى حاضرها ، وقد رأينا أن الغزاة الآريين قد احتلوا أخصب بقاع الهند فى أول أمرهم ، وكانت أخصب تلك البقاع هى أرض الأنهر الخمسة فى شمال غربى الهند ، ثم اتجهوا شرقاً إلى حوض نهر الكنج ، وقد حملوا معهم بعض النظم المحلية والتشريعات القضائية مثل أقاربهم الذين اقتحموا بلاد اليونان ، ولكن فى بلاد اليونان كان نظام المدن المتجمعة يسهل بحث المشكلات العارضة وتقليبها على وجوهها ، ولذا شجع ذلك التجربة الدمقراطية ، ولكن سهول الهند الواسعة فسحت المجال لظهور الزعيم الحربى والقائد القوى ، ولذلك كان تاريخ الهند إلى حد كبير تاريخ تعاقب الإمبراطوريات الحربية المتشابهة ، وبعض هذه الإمبراطوريات كان فخماً ضخماً ، ولكنها جميعها كان يتوقف كيانها على قوة العاهل المسيطر وقدرة جيشه ، وقليل من الأسر الحاكمة استطاعت أن تخرج سلسلة متتابعة من الحكام الأكفاء الحماة ، ولذلك كانت حياة تلك الأسر قصيرة لا تتجاوز إلا فيما ندر ثلاثة أجيال أو أربعة .

وأول إمبراطور هندى جدير بهذا الإسم هو شاندرا جوبتا موريا الذى استطاع فى القرن الرابع قبل الميلاد أن يمد حدود أملاكه من البنغال إلى الهندكوش ، وفى عهد خليفته ازدادت الإمبراطورية استقراراً وتماسكاً ، وفى عهد حفيده أشوكا امتدت الإمبراطورية إلى جنوب الهند ، وقد حكم مدة خمس وثلاثين سنة ، وبعد أن خاض غمار الحروب وانتصر فى غزوات كثيرة جرياً على السياسة التقليدية فى الهند أثر فى نفسه ما تخلفه الحروب من بؤس وشقاء فعافها وانصرف عنها ، والتحق بالطائفة البوذية ، ولبس مسوح الرهبان حيناً من الزمن ، وأبطل الصيد وأكل اللحم ، وعمل على نشر الديانة البوذية فى ربوع الهند ، وكانت الديانة البوذية قد نشأت فى الهند منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وقد شيد لها الكثير من الأديرة ، وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً وجزيرة سيلان ، بل أرسل البعوث إلى سوريا ومصر واليونان ، وبالإضافة إلى هذا النشاط الدينى أقبل أشوكا بحماسة على تنظيم إدارة بلاده فى شئونها الدينية ، فكان يكثر من ساعات العمل فى يومه ، ولم تكن الحوائل لتحول بينه وبين معاونيه ، فكانوا يتصلون به فى شئون الدولة فى أى ساعة شاءوا ، وكان أشوكا يعنى بوجه خاص بتأكيد الإعراض عن استعمال العنف ، ويدعو إلى الرأفة بجميع الأحياء ، وقد انتشرت البوذية بعد ذلك فى بورما وسيام وكامبوديا والصين واليابان ، وسرعان ما تصدعت جوانب إمبراطورية موريا بعد وفاة الملك أشوكا ، وغلبت البوذية التى عمل من أجلها كثيراً على أمرها واستوعبتها الديانة الهندوسية ، ولكن تصور أشوكا لواجبات

الحاكم ونزعته الخيّرة وكراهته للعنف لا تزال ظاهرة الأثر معروفة السمات فى هند العصر الحاضر .

وفى القرن الرابع والخامس الميلادى ظهرت إمبراطورية جوبتا ، وهى تضارع فى امتداد رقعتها واستقرارها الإمبراطورية المورية ، وقد قضت عليها جموع الهون البيض ، وهم بدو رحل تدفقوا على السهول الهندية من ممرات الشمال الغربى ، ولم يترك هؤلاء الغزاة أثراً يذكر فى الهند ، لأن الهند سرعان ما امتصتهم وهضمتهم ، وبعد قدومهم بخمسة قرون جاءت إلى الهند جموع الترك فلم تجد أمامها غير الهندوس .

وتراث الهند السياسى لا يوازن بتراثها الاجتماعى ، فمن الناحية السياسية قامت إمبراطوريات أوتقراطية ، ولكنها لم تستطع أن تحقق تحقيقاً كاملا حلم الهند المتحدة ، وكان الهندى يعنى بواجباته الأدبية والطريق الذى يسلكه فى الحياة أكثر مما يعنى بنوع الحكم وأسلوبه ، ولم يكن يشغل باله كثيراً بالدفاع عن الحكومة القائمة ، وهذا إلى حد ما يفسر لنا سهولة سقوط الإمبراطوريات المتوالية نسبياً فى الهند والانتصارات التى كان يحرزها على الدوام الغزاة القادمون من الشمال الغربى .

الفتح الإسلامى

كان تبادل التجارة قائماً بين الهند وبلاد العرب منذ العصر الجاهلى فلما ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية كان من الطبيعى أن تصل أخبار هذا الدين الجديد إلى الهند عن طريق التجار ، وأن تبعثهم الحماسة الدينية إلى التبشير بالإسلام .

وقد كان لدخول الإسلام الهند تأثير بعيد المدى فى تاريخها وحاضرها ، وقد وصلت موجة الفتوح الإسلامية إلى بلوخستان سنة ٦٥٠ ميلادية ، وبعد ذلك بستين سنة تدفقت جموع المسلمين إلى السند ، وأصبحت السند جزءاً من الخلافة الإسلامية ، ولكن السند تعد إلى حد ما منعزلة عن الهند وراء الصحراء ، وهذه الصحراء تعوق التقدم المباشر إلى الهند ، وقد انقضى ما يقرب من ثلاثة قرون قبل أن يستأنف الإسلام هجومه المباشر على الهند ، وفى هذه المرة كان الهجوم موجهاً من الشمال الغربى وهو المنهج المسلوك لغزو الهند ، وكان الغزاة فى هذه المرة من الأتراك المسلمين لا من العرب الخلص .

فى أواخر القرن العاشر قامت دولة تركية قوية فى أفغانستان ، واتخذت غزنة قاعدة لها ، وهى تقع على بعد ثمانين ميلاً جنوب كابول ، ومن هذه القاعدة انبعثت حملتان قويتان إلى الهند وفتحتا بلاد البنجاب ،

وفى سنة ١١٩٣ ضعف أمر الدولة الغزنوية وقامت على أنقاضها دولة تركية أخرى ، وهى الدولة الغورية ، وقد نقل السلطان محمد غورى مقر ملكه إلى دلهى فى الهند ، وجدّ فى نشر الدين الإسلامى فى الهند ، وفى خلال القرن الثالث عشر اتسع النفوذ التركى الذى كان مركزاً فى دلهى حتى شمل معظم الهند الشمالية ، وفى القرن الرابع عشر وصل هذا النفوذ إلى جنوب الهند ، وأعقب ذلك عهد اضطراب وصراع امتد من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر ، وانتهى بتغلب الغزاة المغول الذين جاءوا إلى الهند من الشمال الغربى ، وفى القرن السابع عشر أظل سلطانهم الهند جميعها على وجه التقرب ، وانهيار الدولة المغولية فى القرن الثامن عشر هو الذى مكن لشركة الهند الشرقية ويسر لها سبيل التدخل فى شئون الهند ونيل النفوذ السياسى والاقتصادى ، والغزو الإسلامى للهند يشبه من بعض الوجوه الغزو الآرى ، وقد كان عدد الهندوس يفوق عدد المسلمين بكثير ، ولكن الهند لم تستطع إدماج المسلمين الغزاة فى كيانها وخلطهم بنفسها ، وفى كشمير والبنجاب والسند يبلغ عدد المسلمين أكثر من ثلاثة أرباع السكان ، وفى البنغال عدد المسلمين أكثر من نصف السكان ، أما فى سائر أنحاء الهند فإن المسلمين أقلية .

وقد استطاع المسلمون الاحتفاظ بكيانهم ، لأنهم حينما قدموا الهند كانوا يحملون معهم لغتهم العربية أو الفارسية ، وقد تفرع من اللغة الفارسية فى الهند اللغة الأوردية ، وكان للمسلمين قوانينهم المدنية وشرائعهم الدينية ، وكانوا على اتصال دائم بالمسلمين فى خارج الهند ، ويضاف إلى ذلك



أكبر خان

التفاوت بين العقيدة الإسلامية والمعتقدات الهندوسية ، والمسلم يؤمن بالله وباليوم الآخر ، والهندوسي يعتقد بتكرار الميلاد ، وتعدد الآلهه ، والإسلام نوع من الأخوة ، لأن المسلمين سواء أمام الله ، ولكن الهندوسية كما كان يتصورها الهندوس كانت ترى النظام الطبقى ، وتستمسك به ، وموجز القول أنه كانت هناك أسباب كثيرة تدعو إلى عدم تقوية الصلات بين الهندوس والمسلمين ، وتجعل كلا الفريقين يقف من الآخر موقف المحاذر المستريب ، ويظن الظنون بثقافة الآخر وعقليته ، وقد استغل المستعمرون الغربيون هذا الموقف ، وأفادوا منه فى توطيد سلطانهم وبسط نفوذهم .

وقد حاول بعض ملوك الهند المسلمين التقريب بين المسلمين والهندوس ليكون ذلك مدرجة لإيجاد الهند المتحدة الموحدة ، وقدر لأكبر خان حفيد بابر والذى حكم الهند من سنة ١٥٥٦ إلى سنة ١٦٠٥ أن يقوم بالجانب الأكبر من هذه التجربة ، وكان أكبر خان عظيم الطموح كبير الآمال ، قوى العقل ، سريع النفاذ إلى لباب الأمور ، والمبادرة إلى البت والتنفيذ ، وقد حاول طوال حياته أن يخضع الهند لسلطة واحدة مركزية ، وقد أدرك أن الوحدة السياسية لا تدوم إلا إذا اقترنت بالوحدة الاجتماعية ، ولم تكن سياسته أن يكون حاكماً مسلماً يسيطر على البلاد بقوة المسلمين وحدهم من مغول وأفغان وفرس وأتراك وإنما كان يرمى إلى أن يكون حاكماً هندياً خالصاً يحكم الهند باسم الهنود جميعاً من مسلمين وغير مسلمين لمصلحة الهند برمتها ، فلا تميز بين هندوسى ومسلم ، ولا

فضل لمغولى على أفغانى ، وقد استطاع بذلك أن يستميل نفوس الهندوس ، وقد حاول أن يخلق عقيدة جديدة ، وفى سنة ١٥٨٢ أعلن هذا الدين الإلهى الجديد ، وأراد أن يبعد عن مسلمى الهند المؤثرات الخارجية ، فطلب إليهم أن يعتبروه خليفة ، وكان يخمد الحركات الثورية التى يقوم بها المسلمون بشدة ، وقرّب زعماء الهندوس ، ورفع عنهم الجزية ، وكان يعهد إلى بعض القادة من الهندوس فى قيادة جيوشه .

ولكن خلفاء أكبر لم يتبعوا سياسته ، بل سار بعضهم على سياسة معارضة لسياسة أكبر ، والمعروف عن أورانجزيب الذى حكم الهند من سنة ١٦٥٨ إلى سنة ١٧٠٧ أنه أعاد الجزية على غير المسلمين بعد أن أبطلها الملك أكبر ، ولم يبال باحتجاج الهندوس على ذلك ، وظهرت فى إقليم الدكن قوة هندية جديدة تحدّت الإمبراطورية المغولية ، وهى قوة المهراتا ، وقد هددوا الإمبراطورية المغولية تهديداً خطيراً ، وكاد يتم لهم الاستيلاء على وسط الهند .

وبعد موت أورانجزيب فى سنة ١٧٠٧ تصدعت الإمبراطورية المغولية ، وضعفت الإدارة المركزية من جراء الحروب الطويلة التى نشبت بين أولاده وهجمات المهراتا من الجنوب وغزو نادر شاه ملك إيران سنة ١٧٣٨ — ١٧٣٩ ، وقد سار نادر شاه بجيوشه حتى أبواب دلهى وقد استباحت جنود نادر شاه المدينة حتى ذهبت ثروتها ، وقتل عدداً كبيراً من سكانها .

والإمبراطورية المغولية مثل سائر الإمبراطوريات الهندية التى قامت

قبلها لم تستطع أن تقف تيار الغزو من الشمال الغربى ، وعجزت عن مد نفوذها فيما وراء جبال ونديا ، وكانت حكومتها مثل حكومات الإمبراطوريات الهندية قبلها ، أى أنها كانت حكومة أوتقراطية حربية ، أول ما يعنيها المحافظة على حياة الحاكم الأعلى والاهتمام بالجيش ، وقد كان أكبر خان هو الوحيد الذى بذل جهداً جباراً لرأب صدع الوحدة الهندية ، وقد ظهر بعد ذلك تأثير الماضى فى الحاضر فى اختلاف وجهة النظر بين حزب المؤتمر الذى كان يطالب بالهند الموحدة وحزب الرابطة الإسلامية الذى جاهد لفصل الهند الإسلامية ووفق فى تحقيق مطلبه سنة ١٩٤٧ بإيجاد حكومة الباكستان .



فاسكودا جاما فى حضرة الزامورين

الهند والاستعمار الغربى

فى سنة ١٤٩٨ وصل الرحالة البرتغالى ڤاسكودا جاما إلى كليكوت الواقعة على شاطئ ملبار فى جنوب غربى الهند ، وفى سنة ١٩٤٧ انسحبت قوات بريطانيا من الهند ، والفترة الممتدة بين سنة ١٤٩٨ وسنة ١٩٤٧ وتبلغ أربعمائة وخمسين سنة تكوّن عصراً تاريخياً واضح المعالم ، وهذا العصر قد مر بمراحل وتطورات ، ولكنه ظل محتفظاً بعلاماته المميزة ، وسماته المعهودة ، وقد تغيرت فيه البواعث والمحركات وتبدلت بعض أفكاره الأساسية ، وقد كان فى طليعة البواعث التى حرضت البرتغاليين على المجىء إلى الهند الرغبة فى محاربة الإسلام ، وتقويض دعائمه ، والقضاء عليه ، وقد أدرك هذه الرغبة الفتور بعد أن انتهى تهديد الإسلام لأوربا بمعركة ليبانتو فى سنة ١٥٧١ ، ومن الدوافع الأصيلة كذلك الحرص على احتكار تجارة التوابل ، ولكن بعد انقضاء مائة سنة أصبحت الرغبة فى استيراد المنسوجات والشاى والسلع الأخرى هى الدافع الأكبر ، وتغير الحال بعد حدوث الثورة الصناعية فى بريطانيا ، فأصبح الدافع القوى هو الرغبة فى إيجاد أسواق لتصريف المصنوعات الأوربية ، وأخيراً صارت الرغبة فى توظيف رءوس الأموال الأوربية هى الدافع الأول ، وكان اهتمام الأوربيين بالهند فى بادئ الأمر يكاد يكون مقصوراً على

التجارة ، ولكن فى القرن التاسع عشر الذى ازدهر فيه الاستعمار الغربى أصبح بسط النفوذ السياسى فى طليعة المطالب ، وصار هو الوسيلة المضمونة للاستغلال الاقتصادى والاحتكار التجارى .

وقد تبدلت الزعامة الغربية فى تلك الفترة ، فانتقلت من البرتغاليين إلى الهولنديين ، وفى منتصف القرن الثامن عشر حدث نزاع على تلك الزعامة بين فرنسا وبريطانيا العظمى ، ولكن هذا النزاع لم يطل أمده ، وخرجت منه بريطانيا منتصرة ، ومنذ ذلك الحين لم تلق السلطة البريطانية تهديداً خطيراً فى الهند حتى أوائل الحرب العالمية الثانية .

ورغم هذه التغيرات والتطورات فإن هذا العهد الذى بدأه ڤاسكودا جاما يمتاز بصفات مميزة كما قدمنا أظهرها غلبة قوة الغربيين البحرية ، وفرض الاقتصاد التجارى على جماعات كانت حياتها الاقتصادية تقوم فى الماضى على الإنتاج الزراعى والتجارة الداخلية ، وامتداد النفوذ السياسى الغربى على كثير من الأمم الشرقية وإذلالها واستغلالها ، وقد كانت السيادة البحرية فى المحيط الأطلنطى فى المائة سنة الأولى من ذلك العهد لسكان شبه جزيرة أيبريا ، وكانت سيادة الأطلنطى تتضمن السيادة فى المحيط الهندى ، وقد تناقصت هذه السيادة بعد تحطيم الأرمادا .

وقد ورثت البرتغال چنوا فى القيام بعمليات الكشوف الجغرافية ، وأصبحت فى القرن الخامس عشر المدافعة عن المسيحية ضد الإسلام ، وقد تجددت الروح الصليبية وازدادت قوة فى شبه جزيرة أيبريا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت قشتالة وأرغون والبرتغال ترى

فى الإسلام ما يهدد وجودها ، وكان المسلمون ما يزالون فى الأندلس خلال تلك الحقبة ، وكانت محاربة الإسلام واجباً وطنياً ، وفرضاً دينياً على الأيبريين ، سواء كانوا من الإسبانيين أو البرتغاليين وكان الإسلام فى رأيهم هو العدو الصريح الذى يجب عليهم محاربته فى كل مكان ، وتفهم هذه الحقيقة يفسر لنا الكثير من أعمال البرتغاليين وحركاتهم ومراميهم ، ولكن حتى فى الوقت الذى كان فيه هدف البرتغاليين الأول هو إضعاف الإسلام كانت تختلط بهذا الغرض أهداف أخرى ، ومن كلمات الزعيم البرتغالى البوكرك لرجاله حينما وصل إلى ملقا قوله « إن البرتغاليين يؤملون استنزاف قوة الإسلام بإقصاء المغاربة عن تجارة التوابل » .

وتمكن الأوربيين من السيطرة على البحار من ناحية وضعف الإمبراطوريات الشرقية من ناحية أخرى مهد للأوربيين سبيل التحكم فى الشرق ، وقوى نفوذهم السياسى ، وقد أوحى إليهم ما نالوه من النفوذ والسلطان فكرة التفوق الشعبى والتضامن ضد الأسيويين والإفريقيين ، وكان لهذين العاملين أثر كبير فى تلك الفترة

وهناك مسألة أخرى تميز بها هذا العصر ، وهى محاولة تنصير آسيا وإفريقية ، وقد كان البرتغاليون فى أول حركتهم الكشفية تسيطر عليهم الروح الصليبية ، ولكن هذه الروح الصليبية كانت فى جوهرها عداء للإسلام ، ولم يكن الغرض الجوهرى منها فى بادئ الأمر نشر الديانة المسيحية ، وإنما بدأت حركة نشر المسيحية فى العالم الكاثوليكى لمقاومة

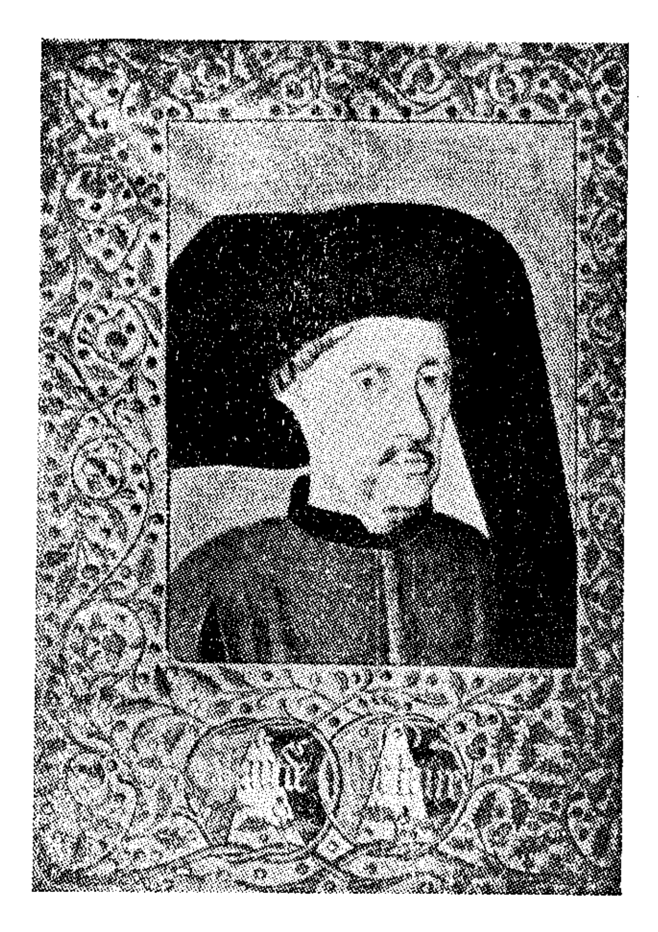
حركة الإصلاح الديني ، وبمجيء الهولنديين والبريطانيين إلى ميدان المنافسة فى الاتصال بالشرق ضعفت هذه الحركة ، ولم تعن الجماعات البروتستانتية بحركة التنصير إلا فى أواخر القرن الثامن عشر وأصبحت إرسالياتهم إلى الصين والهند من الملامح البارزة فى العلاقات بين آسيا والغرب .

وقد انقضى عهد الاستعمار والعلاقات بين آسيا والغرب ما تزال قائمة ، بل قد اتسعت وزادت ، ولكن هناك فرقاً جوهرياً بين العلاقات الراهنة والعلاقات السابقة ، فعلاقات الغرب بالشرق الآن قائمة على أساس تبادل المنافع ، والمصلحة القومية للطرفين ، وليست مفروضة فرضاً ، والعلاقات بينهما علاقة الأمم المستقلة بعضها ببعض ، ويرجع ذلك كله إلى عوامل كثيرة ، فى طليعتها نضج الوعى القومى فى الأمم الشرقية ، واتساع النفوذ الأمريكى فى الشرق وتزايد قوة روسيا الشيوعية ، وكان لوقوع حربين كبيرتين فى النصف الأول من القرن الراهن أثر قوى فى إنضاج الوعى القومى وإزالة الغشاوات عن الأبصار واستعادة الأمم الشرقية ثقتها بنفسها .

الهند والمحيط الهندى

وصل ڤاسكودا جاما إلى ميناء كاليكوت على شاطىء الهند الجنوبى الغربى فى ٢٧ مايو سنة ١٤٩٨ ؛ ووصوله يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الهند وأوروبا ، وقد عرف الأوربيون الهند من أقدم العصور ، وقد حارب الجنود الهنود تحت راية الفرس فى بلاد اليونان سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، وكانت هناك علاقات ودية بين الهند وبلاد اليونان قبل وصول الإسكندر المقدونى إلى حدود الهند ، وزارت السفن الرومانية ثغور الهند بعد أن اتخذت مصر قاعدة لها ، وعرف جغرافيو اليونان والرومان شواطىء الهند، وكشفت البحوث الحديثة أنه كان هناك تجارة بين الهند والدولة الرومانية فى القرن الأول الميلادى ، وفى أثناء عصور الظلام ظلت الهند تثير خيال الأوربيين بالرغم من عدم وجود صلات منظمة بينهم وبينها ، وقد ازداد الاهتمام بالشرق عامة بعد الغزوة الصليبية الأولى ، وكان عند أهل البندقية وچنوا معلومات مفصلة عن الهند وأحوالها وتجارتها ، وفى القرن الثالث عشر زار الهند كثير من السائحين الغربيين منهم ماركو پولو السائح المعروف .

وقبل وصول ڤاسكودا جاما إلى كاليكوت بسنوات قلائل ورد شاطىء ملبار رسول من قبل ملك البرتغال دون چوان الثالث اسمه بيرود داكو ڤلهام ، وكان جندياً ولغوياً وجاسوساً وسياسياً ، وقد ارتدى ثياب



الأمير هنرى الملاح

المسلمين ، وجاء على سفينة عربية ووصل الهند سنة ١٤٨٨ ، وزار كاليكوت فى السنة نفسها قبل مجىء ڤاسكودا جاما بعشر سنوات ، وكان للتجار الهنود محال للتجارة فى القاهرة وعلى شواطىء البحر الأبيض حتى مدينة فاس ، فما هى أهمية رحلة ڤاسكودا جاما إذاً ؟

أهمية رحلة داجاما أنها كانت تحقيق حلم راود خيال البرتغاليين مائة سنة ، وقد تطلب تحقيقه مجهوداً متواصلاً استمر خمساً وسبعين سنة .

كان تحقيق هذا الحلم أمنية سكان البحر الأبيض المشتغلين بالتجارة باستثناء أهل البندقية ، وكان الذى اضطلع بأعباء تحقيقه أهل البرتغال ، ولكى نعرف الباعث الدينى والسياسى والاقتصادى الذى كمن وراء ذلك من اللازم أن نلم إلمامة سريعة باتجاهات خاصة فى تاريخ أوروبا فى القرنين السابقين .

فمنذ عهد صلاح الدين الأيوبى الذى استرد أورشليم من الصليبيين فى سنة ١١٨٧ كان الإسلام وقد اتخذ مصر قاعدة له يعد حاجزاً قوياً يعوق الاتصال بين آسيا والغرب ، والحماسة العظيمة التى أثارت الأوربيين فى الغزوات الصليبية الثلاث الأولى لم تسفر عن شىء ، وانتصار صلاح الدين وطد نفوذ الإسلام فى سوريا وشواطىء مصر لمدة قرون بعد ذلك ، وقد شعر الأوربيون بذلك وعرفه ساستهم ، ولذا وجهت الغزوة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨ / ١٢٢١ إلى مصر نفسها ، وهكذا بعد جهاد استمر مائتى سنة وتولته دول أوروبا المتحدة ظلت مصر وشواطىء سوريا فى يد المسلمين .

وتجارة استيراد التوابل من الشرق وهى من العوامل التى لعبت دورا هاماً فى التاريخ كانت تدر الأرباح الهائلة على القائمين بها ، وكانت لا تأتى إلا من الثغور الهندية عن طريق أراضى الدول الإسلامية .

وقد أضيف إلى ذلك عامل آخر جديد ، وهو المنافسة الشديدة بين البندقية وچنوا ، فقد استطاع أهل البندقية بسياستهم البعيدة النظر وجرأتهم وإقدامهم أن يكون لهم نفوذ واسع فى القاهرة ، واحتكروا تجارة الشرق فى أوروبا ، وقد تمكنوا من المحافظة على تجارتهم فى البحر الأحمر ، وانتصار أهل البندقية على أهل چنوا فى هذه المنافسة التجارية كان من البواعث التى دفعت منافسيهم أهل چنوا إلى التماس طريق الخروج من سجن البحر الأبيض ، والبحث عن طريق آخر إلى الشرق لا يسيطر عليه المسلمون .

وقد كانت المنافسة بين البندقية وچنوا فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من المسائل التى لها أهميتها فى التاريخ ، وقد كانت البندقية حكومة تجارية جهازها الحكومى لا يخدم مصالح التجار وحدهم وإنما يخدم تجارة الدولة جميعها ، ولم يكن لها أسطول تجارى يملكه أفراد ، وإنما كان الأسطول التجارى ملكاً للدولة ، وهى التى تتولى تنظيم الاقتصاد ، أما چنوا فكانت أحوالها تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، كانت الأسر الكبيرة والأحزاب المتنافرة تتداول جهاز الحكم فى الجمهورية وتحوله إلى النفع الخاص ، فحينما يتهيأ النفوذ لحزب من الأحزاب كان يقصى منافسيه ويستأثر بالحكم ومنافعه ، وقد مكنت هذه الروح الفردية أهل چنوا من أن يكونوا مستشارين وخبراء عارفين فى كل بلاط ، وأن يحسنوا وسائل

التجارة ويبدءوا رواية المخاطرة فى مياه المحيط ، وبخاصة لأن هذا الإقدام يعين على الخلاص من احتكار البندقية .

فى أواخر القرن الثالث عشر اقترح الجنويون على الخان أرخون طريقة لتحويل تجارة التوابل من شاطىء ملبار إلى الخليج الفارسى على أن تحمل من هناك إلى ثغور البحر الأبيض الشمالية حيث استطاع الجنويون كسب عطف أسرة پاليولوج وإبعاد البندقيين ، وكانت الفكرة تهدف إلى إيجاد أسطول جنوى فى الخليج الفارسى ليقفل البحر الأحمر فى وجه التجارة الهندية ، ولكن هذا المشروع لم يتم ، وظل الجنويون مع ذلك يتطلعون إلى الهند ويتلهفون على الوصول إليها ، وبان لهم أن المخرج الوحيد مما يعانونه من الضيق هو الاهتداء إلى طريق بحرى آخر إلى الهند لا يكون للمسلمين عليه سيطرة ، وأن هذا هو الرد الوحيد على قوة الإسلام وسيطرته واحتكار البندقيين لتجارة الشرق .

وأخيراً استطاع الجنويون مستعينين بإسبانيا والبرتغال أن يتخلصوا من احتكار البندقية وحصار المسلمين وذلك بوصولهم إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان هذا الوصول إلى الهند نتيجة جهد جبار استمر أكثر من خمس وسبعين سنة ، واستلزم تحسين وسائل الإبحار والملاحة وبناء السفن وإعدادها وكشف شواطىء إفريقية الغربية ، وكان هذا الكشف عملاً تعاونياً لم ينفرد به فرد ، وقد أبلى فيه الأمير هنري المعروف فى التاريخ باسم هنرى الملاح بلاءً حسناً ، فقد ظل خلال أربعين سنة وهو يوجه حركة الكشف ، ويضع لها الخطط ويدبر أمورها ، ويمدها بالمال .

الهند والبرتغال

عهد أحد ملوك البرتغال فى سنة ١٣١٧ إلى أحد أشراف جنوا فى تولى قيادة الأسطول البرتغالى ، وجعل ذلك وراثياً فى أسرته ، وقد استقدم هذا الشريف الجنوى كثيرين من البحارة الجنويين المدربين لقيادة سفن الأسطول البرتغالى ، وفى خلال قرن تشبع البرتغاليون بحب المغامرات البحرية الذى اشتهر به الجنويون ، وتولوا العمل على إنجاز الرسالة التى لم يتمها الجنويون ، وهى تحقيق الوصول إلى الهند عن طريق بحرى آخر غير الشرق الأوسط المعهود ، وكان موقع بلاد البرتغال الجغرافى ملائماً كل الملاءمة للقيام بهذه المهمة .

والبرتغال التى أصبحت وريثة لجنوا فى الكشف أصبحت كذلك فى القرن الخامس عشر المدافعة عن المسيحية ضد الإسلام ، وقد اشتدت الروح الصليبية فى سكان شبه جزيرة أيبريا فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، والسبب فى ذلك أن الإسلام الذى كان بالقياس إلى الدول الغربية الأخرى خطراً بعيداً كان بالقياس إلى قشتالة وأرغون والبرتغال خطراً ماثلاً جاثماً فى عقر دارهم ، وكان أهل أسبانيا والبرتغال يعدون مجاهدة المسلمين ومحاربة الإسلام واجباً دينياً قومياً ، فالإسلام هو العدو المبين الذى يجب القضاء عليه ، وقد تجمعت كل هذه العوامل لتجعل من الأمير هنرى الملاح البطل المعروف والشخصية البارزة فى الحركة الكشفية .

وهنري الملاح هذا (١٣٩٤ إلى ١٤٦٠) هو الابن الثالث لملك البرتغال يوحنا الأول ، وقد نشأ متأثراً بسيرة البطل البرتغالى القومى نونو القاريز الذى انتصر على المسلمين وظفر باستقلال البرتغال ، وقد تشرب الروح المسيحية من صغره ، وتشبع بعداوة الإسلام ، وقد نظّم وهو فى ميعة الشباب حملة لمهاجمة مدينة سبتة ، واستولى عليها فى سنة ١٤١٥ ، وكان هذا أول هجوم على إحدى قواعد المسلمين فى إفريقية ، وهى الباب الذي دخل منه المسلمون إلى الأندلس فى سنة ٧١١ ، وقام الأمير هنرى بحملة أخرى ظن أنه سيحرز فيها انتصاراً آخر ، ولكنها انتهت بكارثة ، وكان قد بدأ يتبين قبل ذلك مهمته فى توجيه الحركة الكشفية ، وانصرف عن الجهاد الحربى ، وفرغ منذ سنة ١٤١٧ لوضع الخطط التى تؤدى إلى الالتفاف حول جناح الإسلام ، وتمهد السبيل لنشر المسيحية فى المحيط الهندى ، وزاد اهتمامه بالهند بمرور الزمن ، وزاره فى مستقره بمدينة ساجرس القريبة من رأس سنت ڤنسنت فى الطرف الجنوبى الغربى من بلاد البرتغال كثير من الهنود ، وبعضهم أبحر فى سفنه ، وأصبحت فكرة الوصول إلى الهند مستولية عليه ، بل وصل به الأعتقاد إلى أن يحس أنه قد أوحى إليه القيام بهذه المهمة ، ولأجل تحقيق هذه الغاية المقدسة استغل ربع دخل جماعة أنصار المسيح التى كان يرأسها . وقد مكنه هذا المورد المالى من أن يجمع حوله فى قلعته فى ساجرس جماعة من الرياضيين والفلكيين وراسمى الخرائط وأسرى المغاربة الذين لهم معرفة بالجزر النائية ، وقد أدرك أن كشف سواحل إفريقية الغربية هو الخطوة الأولى لتحقيق غايته ، وقد

وصلت سفنه بعد محاولات عدة إلى شاطئ غانة ، وكانت حينذاك سوقا كبيرة للذهب المنقول من تمبكتو ، وقد وصل أحد رجاله إلى خط الاستواء ، وقد أسس الأمير هنرى معهداً فى ساجرس لتخريج البحارة البارعين وتزويدهم بالمعلومات الملائمة ، وكانت تدرس فى هذا المعهد أحدث المعلومات البحرية ، ورأى الأمير هنرى أن الرحلات الكشفية تستلزم نوعاً آخر من السفن التى تستطيع الإبحار على مقربة من الشواطئ فأكمل صناعة نوع من السفن الخفيفة السريعة الحركة .

واستمرت حركة الكشف بعد وفاته سائرة على الخطط التى وضعها ففى سنة ١٤٨٧ وصل برتلميو دياز إلى « رأس العواصف » الذى سمى فيما بعد « رأس الرجاء الصالح » ، ووصل إلى المحيط الهندى وفتح الطريق إلى الهند ، وأتيح لدون مانويل الذى لقب بالمحظوظ أن يحقق هذا الحلم ، ولم يتقرر قيام حملة كبيرة لذلك إلا بعد مناقشات طويلة ، وكانت معارضة الشيوخ فى المجلس الذى عقد للمشاورة فى ذلك قوية عنيفة ، وعده فريق كبير مشروعاً خيالياً ربما حمل خزينة الدولة خسائر جسيمة ، ولكن دون مانويل دافع عن المشروع ، وحبذ قيام الحملة ، وآمر بإعداد السفن المسلحة ، وفى يوم ٨ يوليو سنة ١٤٩٧ أبحرت أربع سفن من مصب نهر التاجه ، وكانت الحملة تحت قيادة ڤاسكودا جاما أحد أشراف الأسرة المالكة ، وكانت السفينة التى تحمل العلم تسمى « سان جابريل » وقد زودت بعشرين مدفعاً ، وكانت تزاملها السفينة سان رافائيل ويقودها پول داجاما شقيق ڤاسكو الأصغر ، وكان يعاون ڤاسكو فى رحلته جماعة من البحارة

المدربين الذين حذقوا فنون الملاحة فى معهد الأمير هنرى الملاح ، وكانوا على علم تام بالشواطئ الإفريقية حتى رأس الرجاءالصالح ، ولم تصادفهم فى رحلتهم صعوبات تذكر حتى موزمبيق ، وقد استرشد ڤاسكودا جاما فى عبور المحيط الهندى بأحد ربابنة السفن الهنود ، وكان وصول ڤاسكودا جاما إلى كليكوت على شاطئ ملبار تتويجاً للجهود المتواصلة التى بذلها البرتغاليون للوصول إلى الهند ، وتحقيقاً للحلم العظيم الذى راود خيالهم واستأثر باهتمامهم .

وكان الباعث وراء هذه الجهود هو كما سبق أن أوضحنا تقويض سلطة الإسلام ، ونشر المسيحية ، والرغبة فى احتكار تجارة التوابل ، ومنذ وصول ڤاسكودا جاما إلى كاليكوت كانت هذه البواعث مدار سياسته ، ومحور خططه ، وهدف السياسة البرتغالية بوجه عام ، وقد ظل البرتغاليون يتابعون هذه السياسة ولا يبغون عنها حولاً مدة مائة سنة ، وهى تحدد لنا علاقة البرتغاليين بالهند خاصة وآسيا عامة .

وكان دخول السفينة سان جبريل تحمل مدفعاً إلى المحيط الهندى عاملاً ثورياً جديداً ، فتسليح السفن البرتغالية لم يكن أمراً منتظراً ، وكان شيئاً جديداً فى مياه المحيط الهندى ، وقد مهد للبرتغاليين من أول الأمر سبيل التفوق على السفن الهندية التى تصدت لهم ، وكانت الدولة الوحيدة غير الأوربية التى استعملت المدافع فى السفن هى الدولة العثمانية ، ولكن حين قدوم البرتغاليين إلى كاليكوت لم يكن للأتراك أسطول فى مياه المحيط الهندى ، ولما تنبه السلطان لهذا الخطر كان البرتغاليون قد وطدوا أقدامهم ،

وأصبحوا فى مركز يسمح لهم بإنماء قوتهم ، وسهولة طلب المدد ، ولم يكن ذلك فى وسع الأتراك لانحصار أسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط .

وقد كان المحيط الهندى من أقدم العصور مجالاً عظيماً للتجارة ، وكانت السفن الهندية تمخر عباب بحر العرب إلى ثغور البحر الأحمر ، ولها علاقات تجارية بمصر وفلسطين وغيرها من بلاد الشرق الأدنى ، وقد أبحرت السفن الهندية شرقاً حتى بورنيو ، وكان للهند مستودعات تجارية فى الملايو وجزائر إندونيسيا وكامبوديا وشواطىء الصين الجنوبية ، ولم تكن كل تجارة التوابل تأتى من الهند ، وإنما كانت تحمل من الموانى الهندية عن طريق البحر الأحمر ، وكانت الهند بلاد الفلفل والقاقلة ، أما القرنفل وجوزة الطيب وأمثالها من التوابل والأفاوية الثمينة فكانت تأتى من إندونيسيا ، وظل الهنود متفوقين فى هذه التجارة حتى ظهور العرب فى بواكير عهد الخلفاء ، ولكن العرب والهندوس كانا يتنافسان فى التجارة وحرية البحار مكفولة ، وكانت فكرة السيادة على البحار فى غير المضايق بعيدة عن عقلية الأسويين ، وكان الحكام الهنود الذين يملكون الأساطيل الضخمة مثل أباطرة كولا والزامورين لا يستعملون أساطيلهم إلا فى حماية الشواطىء ومطاردة القراصنة ، ونقل الجيوش وحراستها فى البحار ، والحرب البحرية على نطاق واسع مثل الحرب التى نشبت بين روما وقرطاجنة لم تكن معروفة فى الهند قبل قدوم البرتغاليين ، ولذلك لم تكن السفن الهندية معدة للحرب فى البحار النائية .

ولم يكن للسياسة دخل فى تجارة العرب ، وكان العرب يغشون بسفنهم

الموانى الهندية فى حرية تامة ، وقد امتدت تجارتهم حتى المحيط الهادى ، ووصلت إلى شواطىء الصين ، والظاهر أنهم بعد القرن التاسع دخلوا فى منافسة تجارية مع تجار التوابل الجوجيرا تيين ، لأن البوكرك البرتغالى حينما وصل إلى شاطىء الملايو رأى المنافسة قائمة بين التجار العرب والهنود والصينيين فى أسواقها ، وفى أواخر القرن الخامس عشر وأثناء سيطرة البرتغاليين فى المحيط الهندى (من سنة ١٤٩٩ إلى سنة ١٦٠٠ م) كانت شبه جزيرة الهند خاضعة لحكومات وطنية منظمةلهاقوة وفيها ثبات واستقرار ففى الأرض الممتدة جنوب نهر تونجابا درا عملت تنظيمات لمقاومة الغزو الإسلامى فى سنة ١٣٣٧ ، وفى أواخر القرن كانت إمبراطورية ڤيجا يانجار قد وطدت مركزها فى جنوب الهند ، وامتد سلطانها حتى رأس كومورين ، وفى عهد ديڤارايا الثانى (من سنة ١٤٢٢ إلى سنة ١٤٤٦) أصبحت أقوى حكومات الهند .

وفى وقت وصول البرتغاليين إلى بحار الهند كانت إمبراطورية ڤيجايا ناجار مبسوطة السلطان فى جنوب الهند ، وكان أباطرة هذه الدولة يشاركون البرتغاليين فى كراهتهم الشديدة للإسلام ، وكانوا مثل البرتغاليين يرون فى اقتراب المسلمين من حدودهم ما يهدد سلامتهم ، فكراهة البرتغاليين وأباطرة ڤيجايا ناجار للإسلام كانت من عوامل توطيد البرتغاليين أقدامهم فى جوا التى لا تزال فى حوزتهم حتى اليوم .

وكان حاكم المنطقة الملاصقة لشاطئ ملبارهو زامورين كاليكوت ، وإلى عاصمته جاء ڤاسكوداجاما مع سفنه الأربع فى يوم ٢٧ مايو سنة

١٤٩٨ ، ولم يكن للزامورين دولة متسعة الأرجاء ، ولكنه مع ذلك كان ملكاً قوياً ، وكانت مدينة كاليكوت منذ قرون مركزاً هاماً لتجارة التوابل والأفاويه ، وكانت تأتى إليها التوابل من جزائر الپاسفيكى ومن شواطئ ملبار وتحمل إلى أوروبا ، وكان لتجار كاليكوت مستودعات فى القاهرة والإسكندرية وفاس ، وكانت هناك علاقات تجارية قديمة بين الزامورين وأسلافه وتجار التوابل ، ولما كانت معظم البيوتات التجارية القائمة بهذه التجارة من العرب لذلك كانت هناك صلات قوية بين التجار المسلمين وهذا الحاكم الهندوسى ، وقد قوى هذه العلاقات أن المسلمين لم يكن لهم نفوذ سياسى فى المنطقة التى يحكمها الزامورين ، وكان الزامورين على بينة من سياسة البرتغاليين ، وقد تلقى المعلومات الكافية عنهم من التجار المسلمين ، ولذا سرعان ما تنبه للخطر المستتر وراء مجىء الأسطول البرتغالى إلى كاليكوت وكان للزامورين أسطول قوى يفرض به سلطانه على شاطئ الهند الغربى ، وهكذا ألقت سفن ڤاسكودا جاما مراسيها فى ميناء عاصمة هذا الحاكم صاحب السيادة على الشاطئ الغربى وصديق التجار المسلمين .

ولما كانت الرحلة الأولى رحلة كشفية لذلك اكتفى ڤاسكودا جاما بأن يطلب من الزامورين الموافقة على تبادل التجارة ، ووافق الزامورين على ذلك ، ولكن الربان البرتغالى رفض أن يدفع الرسوم الجمركية ، وكان هذا دليلاً على بدء المتاعب المنتظرة ، وقد لحظ داجاما وجود المغاربة المسلمين فى دهشة وخوف ، ورأى ما لهم من مكانة ونفوذ فى المدينة وفى البلاط ، ولم يكن مستعداً لذلك كله ، وكان يظن أنه سيجد الديانة المسيحية

غالبة فى الهند ، وقد شاهد معبداً هندياً فى كاليكوت فخاله كنيسة ، وبعد تبادل التحيات وبيع البضائع التى أحضرها معه وشراء التوابل والأفاويه عاد إلى البرتغال ليروى أخبار رحلته .

وعرف دون مانويل ومستشاروه أن أعداءهم المغاربة واقفون لهم بالمرصاد فى المحيط الهندى ، وأنهم إن لم يبذلوا مجهوداً كبيراً ضاعت عليهم ثمرات أعمالهم الكشفية ، وبطلت فائدة معرفة الطريق الجديد إلى الهند ، ولذلك أمر الملك بإعداد حملة قوية مكونة من ثلاث وثلاثين سفينة تحمل ألفاً وخمسمائة من الرجال ، ومزودة بالسلاح الوافر ، وعهد فى قيادة هذه الحملة إلى بيدرو الفاريز كابرال أحد أشراف البرتغاليين ، وكانت هذه الحملة ترمى إلى فرض سلطان ملك البرتغال فى المحيط الهندى .

وكانت الأوامر التى يحملها كابرال تقضى بأن يتجه مباشرة إلى كاليكوت وأن يطلب من الزامورين مع التهديد بالحرب إيجاد مركز تجارى ، والسماح لخمسة من الآباء الفرانشيسكان بالتبشير بالإنجيل ، ولم يصل من سفن هذا الأسطول إلى شواطىء الهند سوى ست سفن ، وقد رحب الزامورين بعودة البرتغاليين ، وأوفد رسولاً من قبله يدعو كابرال ، لزيارة كاليكوت ، ولكن القائد البحرى البرتغالى لم يكن يريد خيراً ، وطلب مقابلة الزامورين ، وأصر على أن تقدم له الرهائن قبل نزوله إلى البر ، وقد وافق الزامورين على هذا الطلب الغريب ، وقوبل المندوب البرتغالى بالترحيب ، ومنح مكان للتجارة ، ولكن أحد مساعدى كابرال أساء إلى شعور الأهالى ، فثارت ثائرتهم وفتكوا به ، وقتلوا خمسين رجلاً

من رجال كابرال ، فسحب كابرال سفنه ، وسلط مدافعه على المدينة ، فأعد الزامورين أسطولاً مكوناً من ثمانين سفينة للانتقام من البرتغاليين لإقدامهم على هذا العمل الوحشى ، فلما رأى كابرال سفن الزامورين أبحر عائداً أدراجه إلى البرتغال .

ولم يكن معنى انسحاب كابرال أن البرتغاليين قد أعرضوا عن مد سلطانهم على المحيط الهندى ، فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، وقد قلد دون مانويل نفسه لقب « سيد الملاحة والغزو والتجارة فى الحبشة وبلاد العرب وفارس والهند » وأعد أسطولاً آخر أقوى وأضخم ، وزوده بأوامر ترمى إلى فرض سلطانه فى مياه المحيط الهندى ، واختار ڤاسكودا جاما رئيساً للأسطول ، وكان هذا الأسطول مكوناً من خمس عشرة سفينة تحمل ثمانمائة رجل مدربين ، وكانت الإمدادات تتوالى على هذه السفن تحت قيادة بحارين مدربين من البرتغاليين ، وقد أمد تجار مدينة أنتورب الحكومة البرتغالية بالمال لأنهم حاولوا الاستفادة من هذه الحركة .

وكان ڤاسكودا جاما فى هذه الرحلة يعترض السفن التى يلقاها ويحطمها فنشر الرعب فى المحيط الهندى ، وبلغت أخبار الفظائع التى ارتكبها آذان الزامورين قبل أن تظهر سفنه على شاطىء ملبار ، واستعد الزامورين لدفع العدوان ومقابلة الشر بالشر ، فقوّى أسطوله البحرى ، ولكن سفن أسطوله لم تكن مزودة بالمدافع ، وفى المعركة التى حدثت عند كوشان الواقعة على خليج ملبار تكبد الأسطول الهندى خسائر جمة لخلو سفنه من المدافع ، ولكن قائد أسطول الزامورين استطاع أن يصلك سفنه بحيث

لا تستطيع سفن البرتغاليين أن توجه إليها مدافعها ، واضطر ڤاسكادا جاما إلى الانسحاب عائداً لبلاده ، ولم يستطع الأسطول الهندى متابعته وإنزال الخسائر بسفنه ، لأنه لم يكن نداً للأسطول البرتغالى فى البحار المكشوفة البعيدة عن الشواطئ ، وعرف البرتغاليون فى هذه المعركة مدى قوة الأسطول الهندى ، وأدركوا أنه لا يستطيع مقاومتهم إلا إذا كان على مقربة من الشواطئ ، واستغلوا هذه المعرفة أشد استغلال ، فلم يكد أسطول ڤاسكودا جاما يبرح المحيط الهندى حتى قدم أسطول برتغالى آخر يقوده لوبوسوارز ، وكان هذا الأسطول مكوناً من أربع عشرة سفينة ، ووصل إلى مياه كاليكوت ، وكان سوارز رباناً مدرباً ، وقد حطم فى هجومه المفاجئ قسماً من الأسطول الهندى الذى كان راسياً فى كرانجانور ، وهاجم بعد ذلك أسطولاً تجارياً كان قد تجمع فى ميناء آخر وفرق شمله بعد معركة عنيفة ، وأدرك الزامورين أن سفنه لا قبل لها بمقاومة سفن البرتغاليين المزودة بالمدافع ، فطلب المساعدة من سلطان مصر ، وكان على علاقات حسنة معه ، فأبحر إلى بحر العرب أسطول مصرى مزود بأحدث الأسلحة ويحمل ألفاً وخمسمائة من الرجال ويقوده الأمير حسين فى أوائل سنة ١٥٠٧ ، وكانت الخطة التى رسمها الأمير حسين بسيطة وسليمة ، فكان غرضه الأول جزيرة ديو ليتخذها قاعدة له ويهاجم الأسطول البرتغالى بعد أن تنضم إليه سفن الأسطول الهندى .

وكان نائب ملك البرتغال فى هذه الفترة دون فرانشسكودا الميدا ، وكان رجلاً ممتازاً بعيد النظر عظيم الكفاية ، ومع كراهته لسياسة الغزو

فإنه كان يعتقد بأهمية جعل النفوذ البرتغالى سائداً سيادة تامة فى المحيط الهندى ،وانضمت سفن الزامورين إلى سفن الأمير حسين ، وتحرك الأسطولان المتحالفان إلى الجنوب لملاقاة الأسطول البرتغالى وكان يقوده لورنسودا الميدا ابن نائب ملك البرتغال ، وتقدم الأسطول البرتغالى من قاعدته فى كوشان ، وتلاقى الأسطولان ، وبعد معركة دامت يومين صمم الأسطول البرتغالى على الفرار بعد أن أصيبت سفينة قائده وقتل .

وواجهت الكارثة البرتغاليين ، وقد جاءهم من مصر أسطول مزود بأسلحة كأسلحتهم ويستطيع مقاومتهم ، وبدا أن حلم دون مانويل كاد أن يتبدد وينقلب كابوساً ، ولكن دون فرانشيسكودا الميدا لم يفقد الأمل ، ولم تخذله شجاعته ، وجمع كل ما يستطيع جمعه من العتاد وأبحر إلى الشمال لمهاجمة العدو ، وكان معه ثمانى عشرة سفينة تحمل ألفا ومائتين من الرجال ، ووصل إلى ديو فى يوم ٢ فبراير سنة ١٥٠٩ ، وترقب الأسطول المصرى الهندى ، وهنا نفعته الخيانة ، فقد كان حاكم ديو من قبل ملك جوجرات مرتدا من أصل أوروبى فانضم سراً للبرتغاليين ، ومنع التموين عن الأمير حسين ، واضطر الأمير حسين أن يعتمد فى تموين أسطوله على الأسطول الهندى الذى أرسله الزامورين ، وبالرغم من ذلك فقد صمم على منازلة الأسطول البرتغالى ، وتلاقى الأسطولان فى يوم ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ قريباً من ديو ولم تأت المعركة بنتيجة ، وضايقت خيانة سلطان جوجيرات الأسطول المصرى ، فانسحب من مياه المحيط الهندى بعد قليل .

وبانسحاب الأسطول المصرى من الميدان فى سنة ١٥٠٩ أصبح نفوذ

البرتغاليين سائداً فى المحيط الهندى ، وبالرغم من أن أسطول الزامورين لم يقض عليه . وأن كاليكوت ظلت حتى سنة ١٥٩٩ تتحدى سلطة البرتغاليين فى مياه ملبار الشاطئية وانتصرت عليهم فى وقعات عدة إلا أن البرتغاليين كانوا أصحاب الكلمة العليا فى عرض البحار ، وقد جعل ذلك التجارة الهندية لمدة قرن ونصف تحت رحمتهم ، والرجل الذى وطد مكانة البرتغاليين فى المحيط الهندى وأرسى قواعد دولتهم البحرية حتى استطاعوا الوصول إلى المحيط الهادى هو البوكرك ، أحد الشخصيات العظيمة البارزة فى تاريخ العلاقات بين آسيا والغرب .

وقد قدم البوكرك الشرق سنة ١٥٠٦ لأول مرة ، وفى طوافه حول عدن وسقطرى وهرمز وضع أساس سياسته البحرية ، فاستولى على جزيرة سقطرى واتخذها قاعدة بحرية مقدراً أهميتها للسيطرة على التجارة فى البحر الأحمر ، وطلب من ملك هرمز أن يدفع له جزية ، وأجابه الملك إلى طلبه ، وكان أولى ما يرمى إليه البوكرك هو إيجاد قاعدة فى الهند تمكنه من أن يفرض سلطانه المطلق على بحار الهند ، ولم يكن فى حوزة البرتغاليين حينذاك سوى حصن كوشان الواقع على جزيرة صغيرة ، ورأى البوكرك أن كوشان غير ملائمة وحول عزمه إلى كاليكوت مركز تجارة التوابل العظيم ، وقد حز فى نفس دون مانويل اخفاق رجاله فى التغلب على الزامورين ، ولذلك أرسل فى هذه المرة دون فرناند وكوتنهو كبير قواده ، وأمره بالاستيلاء على كاليكوت وتحطيم قوة الزامورين ، ورسمت خطة لهجوم مفاجىء ، وظهر أسطولان أمام كاليكوت أحدهما أسطول البرتغال يقوده كوتنهو ، والآخر

أسطول الهند البرتغالى يقوده الحاكم ألبوكرك ، وكان الزامورين متغيباً عن عاصمته ، ولكن حرس القصر لم يجدوا صعوبة فى هزيمة الغزاة البرتغاليين ، وشتت شمل البرتغاليين فى المعركة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل كبير القواد ومعه سبعون من جنوده ، وجرح البوكرك وحمل إلى سفينته فاقد الوعى ، وهكذا أخفقت أول محاولة قام بها البرتغاليون لتحدى سلطة الحاكم الهندى فى البر .

وقد كان لهزيمة كبير قواد البرتغاليين فى كاليكوت تأثير بعيد المدى فلمدة مائتين وثلاثين سنة بعد هذه الواقعة لم تحاول أى أمة أوربية غزو الهند أو تحدى سلطة أى حاكم هندى فى البر ، وقد استولى البرتغاليون على جوا ، واتخذوها قاعدة لهم ، ولكن لم يتيسر لهم ذلك إلا بمساعدة « تولاچى » الرئيس الهندى فى تلك المنطقة ، فقد انضم إلى البرتغاليين لإضعاف سلطة عادل شاهى سلطان الذى كانت أملاكه تجاور هذه المنطقة ، وقد كانت جوا واقعة فى نهاية أملاك عادل شاهى الواسعة ، وكان غزو البرتغاليين لها وتحصينها مما يعين إمبراطورية ڤيجا يا ناجار فى مقاومتها للإسلام ، وقد أدرك أباطرة ڤيجا يانا جار أن جوا تتيح لهم منفذاً على البحر يستطيعون أن يستوردوا منه الأسلحة والعتاد الحربى والخيل اللازمة لفرسانهم ، وقد كتب البوكرك إلى ملك البرتغال يعلمه بأنه قتل جميع المغاربة الذين صادفهم فى جوا ، وهذه الكراهة الصماء التى كان يضمرها البرتغاليون للإسلام والمسلمين أحكمت العلاقات بينهم وبين أباطرة ڤيجا ياناجار الذين ظلوا يحاربون الإسلام مدة مائة وسبعين سنة ، وهذه العلاقات الودية بين الدولة الهندية الهندوسية والبرتغاليين هى

التى مكنت البرتغاليين من الاستيلاء على جوا والاستقرار بها ، وقد طلب البوكرك من أحد أباطرة تلك الدولة منحه مركزاً فى باتكال الواقعة على شاطىء ملبار ، فأجاب طلبه ، واستولى البوكرك بعد ذلك على ملقا وشيد فيها حصناً ، واختار لها حاكماً من رجاله قبل عودته إلى جوا ، وأصبح للبرتغاليين النفوذ والسلطان فى المحيط الهندى ، وهكذا بإيجاد قواعد للبرتغال فى جزيرة سقطرى وهرمز وعدن وجوا وملقا وطد البوكرك سلطة البرتغاليين ، وقد استطاع البرتغاليون البقاء فى الهند لأنهم فى الواقع لم يلقوا مقاومة من ملوك الهند الهندوسيين إذا استثنينا الزامورين ، وقد ناصبهم الزامورين العداء لأن سلطانهم البحرى كان يعارض سلطانه ونفوذه ، ولذلك استمر النزاع بينهم وبينه مائة سنة بغير انقطاع ولم تعقد بينهما معاهدة إلا فى سنة ١٥٩٩ ، وهزيمة البرتغاليين فى كاليكوت شفتهم من داء الأطماع الإقليمية فى الهند ، وكانت جزيرة ديو وجزيرة بومبى وبعض المراكز التجارية على الشاطئ وحصن كوشان هى كل ما يملك البرتغاليون ، وقد قنعوا بذلك ، وقد كان نائب ملك البرتغال فى جوا يحتفظ بالمظهر الفخم والأبهة والعظمة ، ولكنه كان يعرف حدوده فى معاملته للأمراء الهنود معرفة جيدة ، وكان يتبادل معهم المندوبين والبعثات ، ويتلقى منهم الهدايا ، وكانت سلطة البرتغاليين مقصورة على البحار ولا يشاركهم فيها أحد وقد استفادوا فى خلال تلك المدة من احتكارهم للتجارة ، وكانت سفنهم تحمل إلى أوربا التوابل والأفاويه والمنسوجات الحريرية والأحجار الثمينة فكثر مالهم واتسع ثراؤهم .

الهند وهولنده

كان لظهور المذهب البروتستانتى أهمية كبيرة فى آسيا ، فقد غير توازن القوى فى أوربا ، وأخذت بريطانيا تتحدى سلطة فيليب الثانى فى عهد الملكة إليزابث ، وبعد القضاء على الأرمادا الأسبانية أصبح فى مستطاع الدول البحرية الأوربية أن تدخل مياه الهند ، وكانت تجارة التوابل قد انتقلت من لشبونة إلى ثغور الأراضى المنخفضة فى خلال القرن السادس عشر ، وكان طلب التوابل والأفاويه فى البلاد الأوربية الشمالية أشد وألزم ، وأصبحت أنتورب محوراً هاماً لتلك التجارة ، وأصبح التجار الهولنديون غير راغبين فى أن يدفعوا المبالغ الطائلة التى يطالب بها الاحتكار البرتغالى ، وبخاصة بعد أن أصبح معروفاً أنه من الممكن تحدى قوة البرتغال فى البحار الشرقية ، وعقد التجار الهولنديون اجتماعاً بأستمستردام فى سنة ١٥٩٢ ، وكان البرتغاليون منذ عهد دون مانويل قد احتاطوا أشد الاحتياط ليجعلوا معرفة طريق الهند سراً من الأسرار الخفية ، ومنعوا رسمه على الخرائط ، ولذا لقى الهولنديون صعوبات فى جمع المعلومات عن هذا الطريق .

وقد أبحر أول أسطول هولندى تجارى إلى الشرق فى سنة ١٥٩٥ وكان مكوناً من أربع سفن ، ووصل إلى جزائر أندونيسيا وعاد بعد غياب

سنتين ونصف سنة ، وربح التجار الهولنديون ربحاً عظيماً ، وفتح لهم طريق الشرق وتأسست شركة « الهند الشرقية المتحدة » ، وعقد الهولنديون محالفة مع عدو البرتغاليين الشديد الزامورين فى سنة ١٦٠٤ ، وكانت هذه المعاهدة ترمى إلى إجلاء البرتغاليين عن أرضه وعن سائر الهند ، ولكن هذا لم يكن ميسوراً ما دام البناء الذى شيده البوكرك قائماً ، ولذا وجه الهولنديون جهودهم إلى إبعاد البرتغاليين عن أندونيسيا حيث كان مركز البرتغاليين ضعيفاً ، وقد استطاع الهولنديون توطيد أقدامهم فى جزائر الملايو ، وطردوا البرتغاليين من جزيرة سيلان ، وانتزعوا منهم كوشان فى الهند سنة ١٦٦٠ ، وأخذوا منهم كذلك بعض المراكز الأخرى الصغيرة ، وعمل الهولنديون على إقصاء البرتغاليين من تجارة الهند البحرية ، ولم يبق للبرتغاليين من البناء الذى شيده البوكرك سوى جوا وجزيرتى دامان وديو الصغيرتين ، واتسعت تجارة الهولنديين حتى استطاعوا التجارة فى حدود ضيقة مع اليابان والصين ، وتجارتهم مع الصين هى التى أدخلت الشاى إلى الغرب ، وكان لاحتكاكهم باليابانيين بعض الأثر فى تشجيع اليابانيين على معرفة الغرب .

الهند والشركة البريطانية

قبل تكوين الشركة الهولندية بسنة كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد تألفت وتلقت من الملكة اليزابث أمراً بالموافقة على احتكارها لتجارة الشرق ، وكانت الحاجة ماسة إلى التوابل والأفاويه ، وكان الهولنديون فى القرن السادس عشر أهم الوسطاء فى تجارة التوابل ، ولما رفعوا أسعارها فى سنة ١٥٩٩ صمم التجار البريطانيون على أن يدخلوا بأنفسهم ميدان المنافسة فى تجارة الشرق .

وأبحرت أول سفينة بريطانية إلى الشرق فى ٢٤ يناير سنة ١٦٠١ ، ووصلت إلى أشين بجزيرة سومطرة ، وعادت بعد سنتين ونصف سنة فى أواخر نوفمبر سنة ١٦٠٣ تحمل حمولة من الفلفل ، وتبعت هذه الرحلة رحلات أخرى إلى جزائر التوابل والأفاويه ، ولكن أحوال الشركة لم تتقدم تقدماً مرضياً ، لأنه لم يكن عند البريطانيين بضائع صالحة للمبادلة ، وكان الاقتصاديون فى ذلك الوقت يعارضون معارضة شديدة فى تصدير النقد ، وكشف عملاء الشركة فى الجزيرة وسيلة مناسبة ، فقد أخبروا الشركة أن الإقبال على المنسوجات الهندية شديد فى الجزائر الشرقية ، وأنه إذا أمكن استحضار هذه المنسوجات وبيعها فى بنتام وملقا فإنه يمكن تمويل تجارة التوابل من الأرباح ، وهكذا أخذ البريطانيون يسعون

لإيجاد مركز تجارى فى الهند لشراء المنسوجات ، وقد وقع اختيارهم فى سنة ١٦١٢ على سورات .

وفى سنة ١٦١٥ أشير على الملك جيمس أن يرسل سفيراً إلى بلاط جها نجير ملك الهند المغولى ، وكان البريطانيون فى خلال ذلك قد أخرجوا من أندونيسيا ، وأصبح اهتمامهم التجارى الرئيسى محصوراً فى الهند ، وواجهت الشركة مشكلة تمويل التجارة الهندية ، لأن الدفع بالنقد كان متعذراً ، وبدا للشركة أن الحركة التجارية بالبحر الأحمر قد تصلح للتمويل المطلوب ، وأخذت الشركة تسير على سياسة إيجاد مراكز تجارية لها ، ففى سنة ١٦٤١ أوجدت لها مركزاً فى ماسوليبتام ، وفى سبتمبر من السنة نفسها حصلت الشركة من راجا شاندرا جيرى الذى خلف أباطرة ڤيجاياناجار على حق إقامة حصن فى مدراس ، وفى سنة ١٦٤٧ أصبح للشركة ثلاثة وعشرون مركزاً تجارياً ، وفى سنة ١٦٦٥ ضمت بومبى للشركة ، ونقل مقر الشركة من سورات إلى بومبى ، وأخذت أحوال الشركة فى التقدم والازدهار ، وتولى بسط شئونها السير جوسيا تشايلد ، وكان رجلا متأبهاً طموحاً غير متردد يميل إلى سياسة التوسع ، وكان شديد الاحتقار للأسيويين ، وأدى ذلك إلى محاولة الشركة الاستيلاء على أحد المراكز الهندية بالقوة ، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب على الإمبراطورية المغولية ، وأسفر هذا العدوان عن إخفاق الشركة وفقدها المراكز التى حصلت عليها بصعوبة ، واضطرارها إلى أن تلتمس الصلح فى ذلة وخشوع من الإمبراطور أورانجزيب

بعد أن تعهد البريطانيون بألا يعودوا إلى مثل هذا السلوك المعيب فى المستقبل ، وفرضت عليهم غرامة لقاء اجترائهم وتهورهم .

وسمح للإنجليز بالمقام فى كاليكوتا وبناء حصن وليام لحماية مستودعاتهم وكان ذلك فى سنة ١٦٩٠ وأصبح للإنجليز فى آخر القرن السابع عشر مراكز تجارية فى بوببى ومدراس وكاليكوتا ، ومن هذه المراكز الثلاثة استطاع الإنجليز أن يتدخلوا فى شئون الهند بعد مائة سنة ، ولم يكن للشركة فى أوائل أمرها أى نفوذ سياسى .

وقد استطاع الإنجليز تحصين مراكزهم الأساسية فى الوقت المناسب لأن الدولة المغوية ضعفت شوكتها بعد وفاة أورانجزيب فى سنة ١٧٠٧ ، وتداعت معاقلها الشمالية الغربية أمام هجمات نادر شاه ، وقد استباح جنده مدينة دلهى حتى ذهبت ثروتها وقتل الكثيرون من أهلها ، وانتهز كثيرون من الأمراء والحكام ضعف الدولة المغلوبة ، واستقلوا بولاياتهم ، مثل نظام حيدر أباد ونواب البنغال وبيهار ، وقويت شوكة المهراتا فى وسط الهند ، وكادت تدين لحكمهم الهند جميعها ، ولكن رغم سعة ملك المهراتا وامتداد نفوذهم فإنهم كانوا يسيرون على سياسة شن الغارات وسلب جيرانهم ، وقد أوقع بهم أحمد شاه دورانى الأفغانى هزيمة شنيعة فى سنة ١٧٦٢ فى معركة بانيپات على مقربة من دلهى ، وأثخن فيهم ، وضاعت عليهم فرصة تكوين حكومة هندية قومية تشمل مختلف نواحى الهند ، وأخذت تسود الهند الفوضى السياسية والاقتصادية .

الصراع الفرنسي الانجليزي في الهند

تنبه الفرنسيون إلى أهمية التجارة مع آسيا ، وأول من أدرك ذلك هنري الرابع الذي حاول أن يؤسس شركة الهند الشرقية الفرنسية في سنة ١٦٠١ ، وممن فكروا في ذلك السياسي الفرنسي الكبير الكاردينال ريشالييه ، ولكن الظاهر أن فرنسا شغلت عن المضي في هذا السبيل بأحوالها الداخلية حتى عهد الوزير كولبير الذي كان يريد أن يوطد عظمة فرنسا البحرية ، فعنى بأمر شركة الهند الشرقية الفرنسية وتولاها برعايته سنة ١٦٦٤ ، وأعانها بقرض حكومي وضمان حكومي ، وصار للفرنسيين مراكز ومستودعات على شاطىء الهند الشرقي والغربي وتجارة محدودة مع الهند ، وكانت فكرة كولبير الأصلية ترمي إلى توطيد مكانة الفرنسيين في سيلان ، وأرسل أسطولا ضخما لتحقيق ذلك في سنة ١٦٧٠ ، ولكن الهولنديين كانوا له بالمرصاد ، ومنعوا الفرنسيين من احتلال الجزيرة ، ولم تستطع الحملة سوى إيجاد مركز لها في بوند شيري وبعض مراكز أخرى .

ففي أواخر القرن السابع عشر كان نفوذ البرتغاليين في المحيط الهندي والمحيط الهادي قد تقص بالرغم من أنهم كانوا محتفظين بجوا وغيرها من المراكز الهامة ، وكان للهولنديين سيطرة على شواطىء سيلان وبعض المؤسسات التجارية في شبه جزيرة الهند أهمها كوشان ، وكانوا يحتاون



روبرت کلایف

ملقا ويسيطرون على تجارة الملايو ، وكان لهم فى إندونيسيا إمبراطوية قائمة على الاحتكار التجارى كما كان لهم علاقات تجارية مع اليابان والصين ، وحصر الإنجليز اهتمامهم بالهند بعد أن أقصاهم الهولنديون عن جزائر إندونيسيا ، وجاء أخيراً الفرنسيون ووطدوا أقدامهم فى پوندشيرى ولم يكن للدول ألأوربية أى نفوذ سياسى فى غير المراكز التجارية الضيقة التى كانوا يشغلونها ، وقد جرب البرتغاليون فى سنة ١٦٧٢ محاولة فرض إرادتهم على الحكام الهنود فتلقوا درساً جعلهم لا يعاودون ذلك ، وحاول الإنجليز فى سنة ١٦٨٩ أن يركبوا رأسهم ويملوا إرادتهم بالقوة فغلبوا على أمرهم ، وأرغموا على التماس الصلح فى ذلة وخشوع ، وكان قيام دولة المغول فى الهند يجعل الأوربيين لا يفكرون فى بسط سلطانهم على أى جزء من أجزاء الهند ، ويكتفون بما لهم من مؤسسات ساحلية ، ولكن الحال تغير بعد موت الأمبراطور أورانجزيب الذى كان موته نذير انحلال سلطان المغول ، ولما تم هذا الانحلال وقامت على أنقاض دولة المغول دول شتى سهل على عملاء الدول الأوربية وصنائعها التدخل فيما بين هؤلاء الأمراء ؛ وتبارى الأنجليز والفرنسيون فى ميدان المنافسة لكسب النفوذ ، وبسط السلطان ، واستغلال الموقف.

ولم يكن تأسيس الشركة الفرنسية نتيجة باعث تلقائى للتجارة مع الشرق ، وإنما كان نتيجة تدبير الحكومة الفرنسية وجزءاً من سياستها ، ولذلك كانت أحوال الشركة متوقفة على مد السياسة الفرنسية وجذرها ،

وكان اهتمام رجال الشركة بالسياسة أكثر من اهتمامهم بالتجارة ، وكان الكثيرون منهم يفكرون فى فوائد التدخل بين الأمراء الهنود المتنازعين على السلطان ومناصرة فريق منهم على الفريق الآخر لتوسيع شقة الخلاف وكسب النفوذ .

وفى مثل هذه الظروف كان لابد من أن تتصادم المطامع القومية وتتأثر العلاقات بين الشركات بالأحوال الدولية السائدة فى أوربا ، فلما وقعت حرب الوراثة النمساوية التى بدأت سنة ١٧٤٠ بين بروسيا والنمسا انضمت إنجلترا إلى أحد الفريقين ، وأخذت فرنسا صف الفريق الآخر ، ودارت المعارك بينهما فى البر والبحر ، وانتقلت بضرورة الحال إلى الشرق ، وكان حاكم الشركة الفرنسية فى الهند دوبليكس رجلا قوى الإرادة ، بعيد الطموح ، مجرباً فطناً ، عالماً بأحوال الهند ، وقد اعتقد أن انهيار الدولة المغولية قد أتاح الفرصة لتصبح فرنسا سيدة الموقف فى الهند ، وعنّ له أن يطرد الإنجليز من الهند ، وقد وفق سنة ١٧٤٦ فى إجلاء الإنجليز عن أكثر مراكزهم ، ولا سيما فى مدراس ، بعد وقائع كثيرة ، ولم يلبث أن أصبح سيد ساحل الهند الشرقى بأسره ، وقد قاوم الإنجليز مقاومة عنيفة ، واستولى أسطولهم الصغير على أسطول فرنسا الصينى ، ولكن عدم وجود قاعدة بحرية مناسبة لهم أضعف قوتهم ، وكان للفرنسيين قاعدة صالحة فى جزيرة مورتياس ، واستطاع الفرنسيون أن يحاصروا مدراس براً وبحراً فى غيبة الأسطول الإنجليزى ، والتمس الإنجليز المساعدة من نواب أركوت ، فأرسل جيشين ضخمين لمساعدتهم

ولكن نيران القوة الفرنسية ومدافعها ردتهما على عقبيهما ، ورغم ما بذل الإنجليز من محاولات ظلت مدراس فى يد الفرنسيين حتى نهاية حرب الوراثة النمساوية فى سنة ١٧٤٨ فقد تضمنت شروط الصلح إعادتها إلى الإنجليز ، على أن انتهاء حرب الوراثة النمساوية فى أوربا لم يكن كافياً لإنهاء الصراع بين الفرنسيين والإنجليز فى الهند ، وقد رأى ديبليكس أنه بمساعدة المطالبين بعرش ولاية حيدر أباد الدكن يستطيع أن يمد نفوذ فرنسا ، واغتنم ديبليكس فرصة وفاة نظام حيد أباد ، فأجلس أحد أنصاره على عرشه ، وتمكن من نصب أمير موال له على حكومة أركوت ، وهكذا عظم نفوذ ديبليكس دون أن يكلف فرنسا شيئاً ، ولما رأى الإنجليز نجاح سياسة ديبليكس وصدق عزمه فى محاولة إخراجهم من الهند استعانوا عليه بحوك الدسائس فى قصر فرساى نفسه ؛ وقد استطاعوا بوسائل لا يزال أمرها سراً غامضاً أن يحملوا لويس الخامس عشر على استدعائه ، وتركه جميع ما فتح وعقد هدنة مع الإنجليز فى سنة ١٧٥٤ ، وأدرك رجال الشركة الإنجليزية أنهم إذا لم يبادروا إلى تقوية قوتهم البحرية فإنهم سيفقدون مستودعاتهم فى الهند وتجارتهم ، فشرعوا فى بناء سفن جديدة ، واستعاروا من الأسطول الإنجليزى بعض سفنه الحربية ، فلما نشبت حرب السنوات السبع فى سنة ١٧٥٦ استطاع الإنجليز أن يرغموا الأسطول الفرنسى على الالتجاء إلى جزيرة مورتياس واستولوا بسهولة على پوندشيرى .

وكانت الأحوال فى كاليكوتا بالبنغال هادئة نسبياً ، ولكن اتفق فى

السنة نفسها أن سراج الدولة نواب بنغال الشاب الحديث الانتخاب رأى أن الأوربيين قد أكثروا من التدخل فى أحوال جنوب الهند السياسية ، ورأى أن السكوت على ذلك معناه امتداد هذا التدخل الأوربى إلى شمال الهند ، لذلك أراد أن يضرب ضربته ، ويبدأ المهاجمة ، وكانت الفوضى السائدة فى هند ذلك العصر تجعل الاعتماد على القوة وحدها الشريعة المتبعة ، واغتنام الفرص السياسة المرسومة ، وسرعان ما سقط حصن وليام ، واعتقل عدد من رجال الشركة ، ولاذ الآخرون بالفرار ، ولكن تفوق الإنجليز البحرى نفعهم فى هذا الموقف ، فقد قامت حملة من مدراس لإنقاذ كاليكوتا يقودها كلايڤ ، ووصلت الحملة إلى كاليكوتا بطريق البحر ، واستردت حصن وليام ، ، وأرغمت سراج الدولة على طلب الصلح ، وتوجهت الحملة بعد ذلك إلى شاندرناجور للاستيلاء على المستعمرة الفرنسية بها ، ولما أظهرت بعض الأحزاب رغبتها فى الاتحاد لإقصاء سراج الدولة لم يتردد كلايڤ فى الانضمام إليها ، وتوجه لمحاربة سراج الدولة على رأس جيش لا يزيد عدد رجاله عن ثلاثة آلاف جندى ، وكان سراج الدولة متفوقاً من ناحية العدد ، ولكن كلايڤ كان قائداً موهوباً وعارفاً بأساليب الحرب الحديثة ، ولذلك انتصر على سراج الدولة انتصاراً باهراً حاسماً فى موقعة بلاسى المشهورة سنة ١٧٥٧ ، وأقام صنيعه الأمير جعفر حاكماً على البنغال ، ولم يتردد فى إعلان ما كان فى الواقع حقاً ، وهو أن الإنجليز قد أصبحوا سادة البنغال ، وكان كلايڤ بلا ريب رجلا عملياً قديراً ، لكن أساليبه السياسية لم تكن على الدوام

شريفة ، وكان للغش والخداع والرشوة نصيب فى سياسته ، وقد جمع هو وأعوانه ثروات ضخمة ، ويقول الأستاذ فيليبس فى كتابه عن الهند محاولا إنصاف كلايف [١] « بالرغم من ذلك كانت معايير كلايف أسمى من الذى كان متبعاً فى ذلك العصر بالهند ولا يسع الإنسان إلا أن يعجب بقوة عزم كلايف وبته فى الأمور » .

وعند انتهاء حرب السنوات السبع فى سنة ١٧٦٣ كان الإنجليز قد أفادوا من تجارب البرتغاليين والهولنديين فى الاعتماد على القوة البحرية ، ومن تجارب الفرنسيين فى تنظيم القوات البرية على النمط الحربى الحديث ، ووطدوا بذلك مركزهم فى كاليكوت والبنغال وفى مدراس ، وتغلبوا على الصعوبة التى كانت سبباً فى ضعف الإمبراطوريات الهندية ، وهى الاكتفاء بما هو واقع على أحد طرفى جبال ونديا فالإمبراطورية المغولية مثلا لم تتم إخضاع الجزء الواقع فى جنوب جبال ونديا ، ودولة ڤيجايانا جار لم تضم الهند الشمالية ، وقد ساعد الإنجليز فى التغلب على هذه الصعوبة تعويلهم على القوة البحرية ، وركز الإنجليز قوتهم وعنايتهم بالبنغال وهى التى تؤدى إلى قلب الهند مستقر ثروتها وكنوزها .

وتعرض سلطانهم فى البنغال لتجربة جديدة ، ففى سنة ١٧٦٤ حاول الأمير قاسم الذى خلف الأمير جعفر فى البنغال أن يؤكد نفوذه بمحالفة أحد الأمراء من جيرانه ، وناصره شاه علم حامل لقب إمبراطور المغول ، ولكنهم هزموا جميعاً فى معركة بوكسر ، وحصل كلايف فى السنة التالية من الإمبراطور على حق الإشراف المالى على البنغال وبيهار ، وعقد

---

(١) صفحة ٤٥ India. by C.H. Philips

معه محالفة ، وكان فى استطاعة كلايف أن يعلن السيادة الإنجليزية على البنغال ، ولكنه آثر أن يتجنب إثارة المشكلات فى البرلمان الإنجليزى ، وإشعال غضب فرنسا وهولنده ، واختار حاكماً هندياً للبنغال ليكون ألعوبة فى يده ووزع التبعات .

وبرح كلايف الهند فى سنة ١٧٦٧ ، وخلفه ورن هستنجز وكان هدفه تثبيت مركز الإنجليز فى الأراضى التى بسطوا عليها نفوذهم ، والدفاع عنها ، وتنظيم الإدارة تنظيما حديثاً ، وكان الخطر الذى يتهدده كامناً فى الجنوب ، فقد استطاع المغامر الجرىء حيدر على أن يوجد حكومة قوية فى ميسور ، وكانت جماعة المهراتا قد استعادت جانباً من قوتها ونشاطها ، وحاولت من جديد غزو شمال الهند ، وكانت القوة الثالثة بين هاتين القوتين قوة حيدر أباد ، وكانت هذه القوات الثلاث فى بادىء أمرها متدابرة متقاطعة ، وكان ما بينها من الخلاف والصراع يجعل الإنجليز مستريحين من ناحيتها ، ولكن فى سنة ١٧٧٩ وجدت بريطانيا نفسها فى موقف حرج يشبه الموقف الذى استهدفت له فى سنة ١٩٤٠؛١٩٤١ . فحروبها مع مستعمراتها الأمريكية ١٧٧٦ — ١٧٨٣ كانت تسير من سىء إلى أسوأ فى البر والبحر ، وتحالف فرنسا وإسبانيا ضدها أفقدها السيطرة فى المياه الأمريكية ، واستطاع الأسطول الفرنسى فى الشرق أن يشل حركة الأسطول البريطانى ، ونجحت السياسة الفرنسية فى إغراء حيدر على وحيدر أباد والمهراتا بالتحالف ضد الإنجليز ، ولكن ورن هستنجز ثبت وتماسك وقاوم ما استطاع المقاومة حتى حدث ما كان

منتظراً ، وهو وقوع الخلاف بين المتحالفين ، ولما برح الهند فى سنة ١٧٨٥ ترك الشركة قوية الجانب ، ولها سياسة مرسومة ، وهو يعد من الإنجليز الذين مهدوا لإقامة الإمبراطورية البريطانية الهندية .

ولما عاد كلايف وورن هستنجز إلى انجلترا تعرضا للمحاكمة ، وبالرغم من صدور الحكم عليهما بالبراءة فإن البرلمان البريطانى كشف الكثير من عيوب الشركة فى الهند ، ولم يكن من المنتظر بطبيعة الحال أن يُدان رجال انتفعت بريطانيا من جهودهم الشريفة وغير الشريفة ، ولكن الفساد فى أمور الشركة كان مما يثير الحاسة ، الأخلاقية إلى حد كبير ، ويسىء إلى سمعة الإنجليز إساءة بالغة ، ولذا أصدر الوزير پت القوانين الهندية فى سنتى ١٧٨٤ و ١٧٨٦ وقال فى بيان خطته إن الغرض منها منح التاج القدرة على توجيه السياسات الهندية بأقل ما يمكن من التأثير السىء " وقال إن مديرى الشركة وسياستها سيكونان تحت إشراف لجنة ، وإن رئيس هذه اللجنة سيكون له مقعد فى الوزارة البريطانية ، وأصبح مجلس الوزراء البريطانى هو الذى يختار الحاكم العام ، وكان يختار دائماً من رجال السلك السياسى ، وأصبح للحاكم العام سلطة على مدراس وبومبى وحق الإشراف على المجلس الاستشارى ، بل أصبح من حقه أن يقوم بواجبات القائد العام إذا اقتضت الظروف ذلك ، ونرى من ذلك أن الحاكم العام أصبحت له سلطات واسعة تعادل التبعات الملقاة على عاتقه ، وكانت هذه الخطة ملائمة للموقف فى الهند ، وقد ظلت فى جوهرها حتى سنة ١٨٥٨ ، وكانت الشركة حينذاك قد تغلبت على الهند .

وأول من أعطى الفرصة للاستفادة من النفوذ الواسع الذى منح للحاكم العام هو كورنواليس فى سنة ١٧٨٦ ، وكان جندياً مدرباً بارعاً ، وكان اختياره فى الظروف المحدقة بالشركة فى الهند اختياراً موفقاً ، وقد بذل جهداً فى إصلاح إدارة الشركة ، وكان أقوى خصوم الشركة فى تلك الفترة تبى سلطان الذى خلف والده حيدر على فى ولاية ميسور ، ولما جاء إلى الهند ولسلى حاكماً عاماً فى سنة ١٧٩٨ كان الخلاف بين الشركة وتبى سلطان قد بلغ أقصاه ، وكان واسلى صديقاً لرئيس وزراء إنجلترا وليام پت ، وزميلاً له ،وكان يرى أن الحرب بين فرنسا وانجلترا التي بدأت سنة ١٧٩٢ ولم تنته إلا فى سنة ١٨١٥ هى الشىء الهام ، وقد حضر إلى الهند وكلمة وزير الحربية البريطانية دنداس «إذا اخترنا فإننا نستطيع أن نكون الحكم الفيصل فى الهند» ترن فى أذنه .

وفى ذلك الوقت كانت خطة نابليون لغزو الشرق الأوسط قد أصبحت معروفة ، وكان قد جاء مع جيوشه إلى القطر المصرى ، وأخذ يستعد للتحرك إلى الشرق ، وتمهيداً لذلك أرسل رسله إلى شريف مكة وإمام مسقط لمفاوضتهما فى المحافظة على طريق مواصلاته ،وأرسل إلى حاكم مورتياس ينذره بقرب حضوره وإلى تبى سلطان صاحب ميسور باعتباره حليف الفرنسيين فى الهند .

وكان تبى نفسه قد سعى إلى محالفة الفرنسيين ، واستطاع الحصول على مساعدة فرقة فرنسية من مورتياس ، وحضر ضباط فرنسيون إلى حيدر أباد وشرعوا فى تدريب الجنود الهنود ، وذهب ضابطان فرنسيان إلى

جماعة المهراتا ، وقادا جيشين من جيوشها ؛ وكان الخطر الذى يواجه ولسلى هو أن الفرنسيين قد ينجحون فى عقد تحالف مع خصوم الشركة وضم صفوفهم لمحاربتها وإجلائها عن الهند ، ولذا صمم ولسلى على أن يهاجم أعداء الشركة منفردين قبل أن تتهيأ لهم فرصة التحالف ضده ، وكان نظام حيدر أباد أضعف هؤلاء الخصوم ، وقد اتبع معه ولسلى سياسة الإرهاب والترغيب ، واستطاع أن يحمله على طرد الضباط الفرنسيين من بلاده ، وأن يقيم مكانهم ضابطاً من القوات البريطانية وجاءته الأوامر من لندن بمقاومة تبى سلطان ، فطاب واسلى منه أن يتخلى عن محالفة الفرنسيين ، ولكن تبى كان يطمع فى إخراج الإنجايز من الهند ، ولذا قبل التحدى ورفض طلب واسلى ، وهاجمته القوات الإنجليزية واجتاحت بلاده ، ونسفت حصن سرنجابا تام ، وقتل تبى فى المعركة ، وعقدت معاهدت صلح انتقصت فيها أطراف ميسور ، وسلمت للأسرة الهندوسية السابقة التى كانت مصادقة للإنجايز وتحت سيطرتهم ، وغير حاكم كارنتك ، وعقدت معاهدة مع حاكم تانجور ، ولم تأت سنة ١٨٠٠ حتى كان نفوذ الشركة قد عم الجزء الواقع فى جنوب بلاد المهراتا من شبه جزيرة الهند ، وأصبح التهديد الفرنسى للنفوذ الإنجليزى فى الهند لا يجىء إلا من ناحية المهراتا فى الشمال .

وفى خلال ذلك انتصر نلسون فى معركة النيل ، وحطم الأسطول الفرنسى ، وتبع ذلك دفاع الإنجليز عن عكا الذى أرغم نابليون على ترك مشروعات غزو الشرق والعودة إلى فرنسا ، وبالرغم من إخفاق

الفرنسيين فى محاولة الوصول إلى الهند من طريق الشرق الأوسط فإن واسلى لم يجد ما يدعو إلى ترك خططه الرامية إلى القضاء على قوة المهراتا ، وكما استطاع أن ينفرد تبى سلطان قبل القضاء عليه فإنه سار على هذه الخطة فى مقاومته للمهراتا ، فشرع فى بادىء الأمر يبذر بذور الخلاف بين زعمائها ، ومن سوء حظهم أنهم لم يقدروا أن قوتهم لا تجىء إلا من اتحادهم وتماسكهم ، وقد استطاع واسلى إحداث الفرقة فى صفوفهم ، وقد التمس رئيسهم نفسه من الإنجليز حمايته من منافسيه ، ولم تجد جيوش ولسلى التى كان يقودها لوردليك وشقيق واسلى الذى صار فيما بعد دوق ولنجتون صعوبة فى التغلب على جموع المهراتا .

وقد وجد واسلى تأييداً كبيراً من حكومة بلاده ، وأمدته بالمساعدات القيمة ، وسيطرة الإنجليز على المياه الأوربية والشرقية جعلت نقل المدد ميسوراً ، ولكن ولسلى اشتط فى طلباته ، ووضع خططاً تقتضى زيادة عدد جيش الشركة ، واتسعت مطامعه ، وأخاف ذلك رجال الشركة ، وكان المشرف على شئون الهند فى لندن فى تلك الفترة السياسى المشهور كاسلرى ، وقد عبر عن قلقه فى مخاطبته لواسلى بقوله « إن شكوكاً كثيرة جداً تساورنى من ناحية سياستك وواضح جداً أنك ترمى إلى التوسع الإقليمى ، إنها تحمل طابع الغرض المنظم لمد أملاكنا ومخالفة رأى البرلمان " ولم يستطع أعضاء الشركة الصبر على ترك ولسلى يمعن فى تنفيذ خططه ، فاستدعته الشركة فجاء ، إلى لندن ووصف أعضاء الشركة بأنهم أدنياء ليس لهم طموح وأن نظر العادات التجارية الضيق قد غلب عليهم .

وقد نال واسلى من قوة المهراتا ، وعقد معهم صلحٌ سريعٌ بعد رحيله ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يهددون الإنجليز فى وسط الهند ، وكان واسلى استعمارياً خالصاً صريحاً يرى ضرورة بسط السيادة الإنجليزية على الهند ، وبالرغم من أن نابليون ظل يفكر فى إزعاج الإنجليز فى الهند ، ويعقد المحالفات لمهاجمتهم ، ويرسل صنائعه من الحين إلى الحين فإن واسلى صاحب اليد الطولى فى عرقلة خططه بالهند .

ولما تم انتصار الإنجليز على نابليون فى سنة ١٨١٥ استولوا على رأس الرجاء الصالح وسيلان وجزيرة مورتياس وجزائر سيشل ، وحصلوا بعد ذلك على عدن وسنغافوره ، وأصبح فى يدهم منافذ المحيط الهندى ، واستطاعوا بذلك حماية الهند من الغزو البحرى ، وقد بدأ الصراع بين الإنجليز والفرنسيين فى الهند سنة ١٧٤٤ وانتهى سنة ١٨١٥ .

تقدم البريطانيين فى شمال غربى الهند والخطر الروسى

جاء الهند بعد ولسلى اللورد هستنجز ، وقد رأى أن الحدود التى وقف عندها نفوذ الشركة فى شمال الهند ليست كافية ، وأنها يسهل اختراقها ، وأن أملاك الشركة مهددة سواء من الشمال أو الجنوب ، وقد نشبت حرب قصيرة الأمد بين الشركة وبين أهل مقاطعة نيبال الأشداء ، وعقد صلح سخى بينهم وبين الشركة ، ولكن خطر الجنوب كان أقوى ، وكان هناك جماعات من قطاع الطرق والسلابين اسمهم البنداريس ، وقد تكون منها جيوش غير نظامية قوية تحت أعين زعماء المهراتا ، وكانت هذه الجماعات توالى شن الغارات على حدود أملاك الشركة حتى لم تجد الشركة بداً من القيام بمحاولة لمقاومة هذه الجماعات ومنع خطرها ، ولكن القضاء على هذه الجماعات كان يستلزم محاربة المهراتا والقضاء على نفوذها ، وهذا ما قام به اللورد هستنجز فيما بين سنتى ١٨١٧ و ١٨١٨ وكان زعماء المهراتا يؤثرون الموت منفردين على الاتحاد ضد العدو المشترك .

والصلح الذى عقد بعد ذلك مع المهراتا جعل سائر حكام الهنود المهمين يعقدون المعاهدات مع البريطانيين ، والشركة بطبيعة الحال كانت دائماً مستعدة للاعتراف بالأمراء الهنود الذين يبدون استعدادهم للعمل معها والمحاربة فى صفها ، وقد عقدت معاهدات كثيرة منوعة مع كثيرين من

أمراء الهند ، وأمكنها بذلك التدخل فى شئون مختلف الولايات الهندية ، والوقوف على دخائلها وأسرارها ، وكان الخلاف الذى يثور بين الشركة وبين أى حاكم من الحكام الهنود حول تفسير نصوص المعاهدات ينتهى فى أغلب الأوقات بمحاربة الحاكم وعزله وضم ولايته إلى أملاك الشركة ، وفى عهد تقلد دالهوزى منصب الحاكم العام (١٨٤٨ – ١٨٥٦) ضمت إلى أملاك الشركة ولاية ناجبور ، وكان حاكمها قد توفى ولم يترك وريثاً وولاية أوز وكانت حكومتها فى رأى الشركة فاسدة .

وقد عنى المشرفون على شئون الشركة بحدود الهند الشمالية الغربية وحدودها الشمالية الشرقية ، وراعهم أن الدفاع عن الحدود فى هاتين الناحيتين غير ميسور ، ففى آسام الواقعة فى الشمال الشرقى كانت هناك حكومة ظالمة باغية وقد تجاهلتها الشركة حتى سنة **١٨٢٣** ، وقد أرسل ملك بورما حملة إلى البنغال مزودة بأوامر للاستيلاء على كاليكوتا ، ونشبت حرب بينه وبين الشركة ، ولم تجد الشركة صعوبة فى هزيمة جيشه وضمت آسام وجزءاً من بورما إلى أملاكها ، وبذلك مدت الشركة حدود أملاكها إلى جهة جبلية وعرة ولكنها صالحة فى الدفاع عن الهند من الناحية الشرقية الشمالية .

أما فى الشمال الغربى فكانت حدود الشركة تقف عند نهر ستلج ، أى على مسيرة ألف ميل من قاعدتها فى كاليكوتا ، وكانت المشكلة هنا أن مد حدود الشركة فى ناحية الشمال الغربى تزيد خط المواصلات طولاً ، وتجعل المحافظة عليه من الأمور الصعبة مع رداءة وسائل المواصلات فى

تلك الفترة ، ولكن من ناحية أخرى قد دلت التجارب من أقدم الأزمنة على أن غزو الهند الذى لا يشمل السيطرة على الممرات الشمالية الغربية لا يطول أمده ، وأن الدولة التى توطد أقدامها فى بلاد الأفغانستان تستطيع أن تنجح فى غزو الهند ، ومنذ عرف البريطانيون أهداف نابليون فى غزو الشرق وهم يتوجسون خوفاً من الهجوم على الهند من هذه الناحية ، واعتقد الساسة البريطانيون أن الحكومة الروسية تنوى احتلال هذه المنطقة تمهيداً للقيام بهجوم برى على الهند من ناحية الشمال الغربى ، وقد تقدمت الجيوش الروسية فى سنة ١٨٢٨ شرقى بحر قزوين وهزمت الإيرانيين هزيمة شنعاء ، وبعد توقف قصير جمعت جموعها لتهدد أفغانستان ، فهال الأمر الساسة البريطانيين ، واشتد شعورهم بما أسموه الخطر الروسى ، ورأى الخبراء الحربيون البريطانيون أن حدود نهر ستلج لا تكفى فى الدفاع عن الهند ؛ وكانت الأراضى الممتدة بين حدود الأفغانستان ونهر ستلج فى حوزة أمراء هنود مستقلين ، وفى السند كانت أسرة من الرؤساء يسمون الأمراء تتجه بأنظارها إلى الشمال الغربى فى طلب المساعدة السياسية ، وكان فى ولايات البنجاب الواقعة فى الشمال رئيس هو رانجيت سنج ، وقد أرغم قبائل السنج على تكوين وحدة محاربة ، وبالرغم من حسن علاقاته بالشركة كانت الشركة تتوقع المتاعب بعد موته لأنه كان يحافظ على النظام فى ولايته بقوة شخصيته وحدها ، ولم يكن فى أسرته من يدانيه ويستطيع أن يملأ مكانه ، وقد أقدمت الشركة فى هذه الظروف على عمل خذلتها فيه الحكمة وبعد النظر ، فقد حاولت فى سنة ١٨٣٧ أن تجعل

حاكم الأفغانستان خاضعاً لنفوذها الدبلوماسى ، وحاول الحاكم العام فى تلك الفترة وهو اللورد أوكلاند أن يجلس مرشح الشركة على عرش كابول ، ولم يكن للإنجليز سيطرة على حوض نهر السند لحماية خطوط مواصلاتهم فى مهاجمة أفغانستان ، ولذا أبيدت القوة التى أرسلها اللورد أوكلاند لمحاربة أفغانستان فى الحرب الافغانية الأولى من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٣ ، وأصيبت سمعة الشركة إصابة شديدة ، واجترأ أمراء السند على توجيه الاحتجاج إلى الشركة لاستعمال جيشها أراضيهم ، وزاد الأمور تعقيداً موت رانجت سنج فى سنة ١٨٣٩ ، فلم يتردد اللورد النبورو فى ضم السند إلى أملاك الشركة ، وتبع ذلك سلسلة من الوقائع الحربية بين السيخ والشركة من سنة ١٨٤٥ إلى سنة ١٨٤٩ ، وانتهت هذه الحرب بانتصار الشركة ، وضمت البنجاب إلى أملاكها ، وأصبحت حدود أملاك الإنجليز فى الهند متاخمة للجبال مما يسهل مهمة الدفاع عنها .

وهكذا استطاعت الشركة فى مدة قرن أن تبسط سلطانها على الهند وتتولى حراسة حدودها ، وقد نجح الإنجليز فى الاستيلاء على الهند لأنهم فهموا خطة البرتغاليين فى السيطرة على البحار الهندية ، وأخذوا بها ، ولأنهم استعملوا طريقة الفرنسيين فى التغلب على المقاومة الهندية باتباع طرائق الحرب البرية الحديثة ، وقد سهل الصراع بين الأمراء وتنافس الحكام للإنجليز سبيل التدخل فى شئون الهند ، كما أن وجود الأوربيين على الشواطىء الهندية ساعد على ظهور طبقة من الرأسماليين الهنود لها صلات قوية بهؤلاء التجار الأجانب ، وتستمد منهم أرباحاً طائلة ، وارتبط وجود هذه الطبقة

الرأسمالية بوجود الأجانب ، وأصبح لهذه الطبقة نفوذ عظيم ، وقد انتقل النفوذ من بقايا الحكام المغول إلى هذه الطبقة الرأسمالية الناشئة التى اقترنت مصالحها بمصالح التجار الأجانب ، وكانت هذه الطبقة ناقمة على الحكم الإسلامى بوجه خاص ، وقد أصبح لها نفوذ سياسى واقتصادى عظيم ،

وقد كانت هذه الطبقة عاملاً هاماً فى تاريخ الهند ، وهى التى ناصرت الإنجليز فى معركة بلاسى وجعلت قواد سراج الدولة يغدرون به وينضمون إلى الإنجليز ، وقد قوت هذه الطبقة مركز الشركة ، ومدت من نفوذها ، ولم يكن الإنجليز فى أول مجيئهم إلى الهند يحلمون بأنهم سيظفرون بهذا الملك العريض ، ولم يكن لهم خطة مرسومة للاستيلاء على الهند كلها ، ولكن سير الحوادث وقدرتهم على اغتنام الفرص ومصابرة الناس والأحوال ساعدتهم كثيراً ، وكانت السلطات البريطانية فى إنجلترا توالى تحذيرها حكام الهند من الرغبة فى التوسع وضم ولايات جديدة إلى أملاك الشركة ، ولكن الخوف كان له أثره فى إغرائهم بالاعتداء ، ودفعهم إلى سياسة التوسع ، فالخوف من الفرنسيين ومن أمير ميسور ومن جماعة المهراتا ومن السيخ ومن روسيا هو الذى حمل جنود الشركة على إخضاع أمراء الهند حتى وصل نفوذ الشركة حدود جبال الهيمالايا ، وكانت الشركة تعلم أن بقاءها فى الهند متوقف على جيوشها ، والعجيب أن نسبة الجنود البريطانيين فى تلك الجيوش لم تكن كبيرة ، وإنما كان معظم جنود تلك الجيوش من الهنود الوطنيين ، ونجح الإنجليز فى أتباع تلك السياسة لأنهم كانوا يدفعون لهؤلاء الجنود ما يسد حاجتهم بطريقة منتظمة وهى حالة لم تكن معهودة بين منافسى الشركة

وقد يسر لهم ذلك نجاحهم فى التنظيم المالى والإدارى ، وقد وجدت الشركة أن حكمها للهند يكلّفها مصروفات أكثر من الدخل الذى تحصله ، وكانت تسد العجز من الأرباح التى تأتيها من تجارة الشركة مع الصين ، وقد عرض ول ديورانت فى الجزء الثالث من كتابه « قصة الحضارة » الذى وقفه على « الهند وجيرانها » لتاريخ شركة الهند الشرقية البريطانية فقال فيه[١] « كانت شركة الهند الشرقية قد تأسست فى لندن عام ١٦٠٠ لتشترى منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة وتبيعها بأثمان مرتفعة بأوروبا وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦ عزمها على إقامة مستعمرة إنجليزية واسعة فى الهند بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد ، وأنشأت مراكز تجارية فى مدراس وكلكتا وبمباى ، وحصنتها وجاءت إليها بجنود ، وخاضت معارك القتال ، ورشت وارتشت ، وما رست غير ذلك من مهام الحكومة ، ولم يتردد كلايف فى قبول الهدايا التى بلغت قيمتها أحياناً مائة وسبعين ألفاً من الريالات قدمها له الحكام الهنود المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم بالإضافة إلى تلك الهدايا بجزية سنوية تعادل مائة وأربعين ألفاً من الريالات ، وعين الأمير جعفر حاكماً على البنغال لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين ريال وراح يضرب كل أمير وطنى بالآخر ويضم أملاكهم إلى حظيرة شركة الهند الشرقية شيئاً فشيئاً ، وأدمن أكل الأفيون واتهمه البرلمان وبرأه وأزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤ ، وأما وارن هستنجز وهو شجاع علامة قدير فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغاً كبيراً قدره ربع مليون ريال

---

(١) صفحة ٤٠ من الجزء الثالث من كتاب قصة الحضارة ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود

ضريبة عليهم دفعوها فى خزانة الشركة ، وقبل الرشاوى لقاء وعد بألا يفرض ضريبة أكثر مما فرضه ، ثم عاد ففرض ضريبة ، واستولى للشركة على الأراضى التى لم تستطع دفعها ، وأحتل أوز بجيشه ثم باعها لأحد الأمراء بمليونين ونصف مليون من الريالات ، وتسابق الهازم والمهزوم فى الرشوة ، وفرضت على أجزاء الهند التى خضعت لسلطان الشركة ضريبة أراض بلغت خمسين فى كل مائة وحدة من وحدات الإنتاج بالأضافة إلى فروض أخرى كانت من الكثرة والقسوة بحيث فر ثلثا السكان وباع آخرون أبناء هم ليسدوا ما كانوا يطالبون به من ضرائب متصاعدة ، ويقول ماكولى « جمعت فى كاليكوتا أموال طائلة فى وقت قصير ، ودفع بثلاثين مليوناً من الأنفس البشرية إلى أقصى حدود الشقاء ، نعم قد تعودوا من قبل أن يعيشوا فى جو من الطغيان إلا أن الطغيان لم يبلغ بهم كل هذا المدى » .

فما جاءت سنة ١٨٥٧ حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالى الشرقى من الهند إفقاراً أوغر صدور الأهالى فشقوا عصا الطاعة فى ثورة يائسة ، وعندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقمعت العصيان ، وتولت هى الحكم فى الأراضى التى سيطرت عليها واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضاً سخياً للشركة ، وأضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام فى الهند ، ولقد كان هذا فتحاً للبلاد صريحاً غاشماً ، وقد لا يجوز لنا أن نحكم عليه بمعيار « الوصايا الخلقية » التى يحفظها الناس غربى السويس إذ ربما كان الأجدر أن نفهم الموقف على أساس دارون ونيتشه ، فشعب عجز عن حكم نفسه أو عجز عن استغلال موارده الطبيعية لا بد

من وقوعه فريسة لأمم تعانى مما يستثيرها من دوافع الجشع وبسط النفوذ »
ويستطرد ول ديورانت ويقول :

١ « وقد عاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند فرجال أمثال بنتنك وكاننج ومنرو وإلفنستون وماكولى أدخلوا فى إدارة الأجزاء البريطانية من الهند شيئاً من سخاء الحرية التى سادت إنجلترا عام ١٨٣٢ ، فقد استطاع بنتنك بمساعدة المصلحين من أهل البلاد وبحافز منهم أمثال رامون موهان روى أن يلغى عادة دفن الزوجة حية مع زوجها الميت ، وأن يحرم ما كانت تقوم به طائفة من خنق الأغنياء إرضاء للإلهة كالى ، ولئن حارب الإنجليز مائة وإحدى عشرة حرباً فى الهند مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها ليتمموا فتح الهند فقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها ، ومدوا الطرق الحديدية ، وأقاموا المصانع والمدارس ، وفتحوا الجامعات فى كلكتا ومدراس وبمباى ولاهور والله أباد ، ونقلوا من إنجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبوا الشرق بروح الغرب الدمقراطية ، ولعبوا دوراً هاماً فى اطلاع العالم على ما شهدته الهند فى ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة ، وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغياناً مالياً مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماً بعد عام قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية التى تثير فى الإنسان عوامل الفاعلية والنشاط ، وكان ثمن هذه الخيرات طغياناً اقتصادياً قضى على الصناعات الهندية ، وقذف بملايين صناعها الفنيين إلى الأرض يزرعونها فلا تكفيهم طعاماً ، وكان ثمن هذه الخيرات كذلك طغياناً سياسياً كان من أثره وقد جاء بعد طغيان أورانجزيب الضيق الأفق

بزمن قصير أن يميت روح الشعب الهندى قرناً كاملاً » وهذا هو حكم المؤرخ الفلسفى النزعة الواسع الاطلاع على تاريخ الأمم والحضارات والمذاهب الفلسفية والاجتماعية ول ديورانت .

وقد كانت الثورة التى حدثت فى الهند بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٥٨ وهى الثورة المعروفة فى تاريخ بريطانيا باسم حركة التمرد الهندية آخر محاولة قامت بها البقية الباقية من أمراء المهراتا وزعماء المغول لطرد البريطانيين ، وقد أخمدت بقسوة بعد ثمانية عشر شهراً ، وفى سنة ١٨٥٨ انتهى وجود الشركة ، وتسلمت الحكومة البريطانية زمام الحكم فى الهند ، ولما استقر الحكم البريطانى ، وأمن المقاومة ، أخذت بريطانيا تكشف عن مطامعها الإمبراطورية نحو الحكومات المجاورة ، فبسطت سلطانها على بورما وأخذت سنغافورة وملقا .

عهد ما بعد الثورة الهندية

كانت آخر دولة مستقلة فى الهند هى البنچاب ، وقد غزت أراضيها الشركة وضمتها إلى أملاكها فى سنة ١٨٤٦ — ١٨٤٨ وبضمها امتد النفوذ البريطانى من كشمير إلى رأس كومورين ومن الهند كوش إلى آسام ، وبالرغم من إخضاع الدول والحكومات الهندية وأضافة أملاكها لأراضى الشركة قام أهل الهند بمحاولة أخيرة لاسترداد حريتهم ، وقد كانت ثورة سنة ١٨٥٧ — ١٨٥٨ محاولة يائسة قام بها الحكام السابقون الذين وجدوا أنفسهم مسلوبى القوة والنفوذ ، وقد كانت آخر الأنفاس التى أرسلها النظام القديم قبل أن يقضى نحبه ويطوى عهده ، وبالرغم من أن هذه الثوره حركت الولاء للماضى والحنين إليه وأثارت حماسة الجماعات فى مساحات شاسعة مترامية إلا أنها لم تكن لها المثالية الكافية لهزيمة الغاصب وبناء دولة وبعث أمة ، ومنذ إخماد الثورة فى سنة ١٨٥٨ وانهزام بهادر شاه وارث عرش المغول ومحاكمته ونفيه إلى رانجون حتى سنة ١٩١٩ لم يكن هناك أى تهديد خطير للحكم البريطانى فى الهند ، وقد ظلت بريطانيا صاحبة السيادة فى الهند حتى سنة ١٩٤٧ أى لمدة تسعين سنة بعد الثورة ، وقد طرأت على الهند تغيرات شتى فى تلك الفترة نتيجة للعوامل الاقتصادية والسياسية والجغرافية ، ولقد بدأت الهند بوصفها مستعمرة وإحدى الممتلكات

البريطانية ، ولكنها أخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى إمبراطورية خاضعة لحكومة لندن ولكن لها مع ذلك كلمتها المسموعة ، وفى بعض الأحيان كانت حكومة لندن تجد نفسها مضطرة إلى الأخذ بسياسة لا توافق عليها الموافقة كلها رعاية لمصلحة الإمبراطورية الهندية ، ونزولاً على رأيها ، وضخامة الهند وغزارة مواردها وموقعها الجغرافى جعلت البريطانيين يولونها عناية خاصة ، ويضعون سياستهم الإمبراطورية وأنظارهم متجهة إلى الهند، حتى أصبحت المصالح البريطانية فى الهند من أهم العوامل فى تشكيل السياسة البريطانية ، وقد كان محور السياسة البريطانية فى إيران وأفغانستان وغيرهما من الدول الأسيوية المحافظة على الهند والإبقاء على سلطانهم فى ربوعها .

وفى أثناء الجزء الأول من هذا العهد ، وهو الممتد من سنة ١٨٥٨ إلى سنة ١٩١٤ كانت الهند مجرد بلاد تملكها بريطانيا وتحكمها وتسيطر عليها وتستغلها لمصلحتها ، وقد انتقلت السلطة بعد سنة ١٨٥٨ من الشركة إلى يد البرلمان البريطانى ، وكان هذا البرلمان يشرف على شئون حكومة الهند ويوجهها عن طريق وزير مسئول ، وقد ظلت الهند خاضعة لمجلس الوزراء البريطانى وآلة فى يده حتى سنة ١٩٤٦ وذلك بالرغم من أنه فى سنة ١٩١٩ قبلت الحكومة البريطانية بعض القيود لسلطانها فى الهند من الناحية المالية ، وكانت حكومة لندن هى التى تتولى الفصل فى جميع المسائل الهامة أو على الأقل تعرض على وزير الهند لإقرارها ، وكان لحاكم الهند العام مركز سام ولكن سلطته مع ذلك كانت جد محدودة ، ومعظم السلطة فى يد وزير

الهند ، وكان حاكم الهند يعتبر تابعاً له خاضعاً لأوامره وتوجيهاته ، وكان لصوت حاكم الهند أثر من غير شك ولرأيه وزن وتقدير ، ولكن وزير الهند لم يكن بحال ما مقيداً برأى حاكم الهند العام ، أى أن حكومة الهند كانت كما وصفها اللورد كرزون أحد حكام الهند العامين « فرعاً خاضعاً للحكومة البريطانية »

وكانت بالولايات الهندية المختلفة إدارات إقليمية تستمد سلطتها من الإدارة العامة المركزية ، وكان المشرف على إدارة الهند ديوان الخدمة المدنية وكان يستمد موظفيه من إنجلترا ، ويختارهم بعد عقد امتحان مسابقة يراعى فيه أن يكون أفضلية المتقدمين من جامعتى أكسفورد وكمبردج ، وكانت إدارة الهند تضمن بذلك الطبقة التى يتكون منها موظفوها وتشبعهم بالتقاليد الإمبراطورية ، وفى ربع القرن الأول الذى تلا سنة ١٨٥٨ ووضع الحكومة البريطانية يدها على حكومة الهند كان لا يكاد يوجد موظف هندى فى الخدمة العامة ، ولكن فى أواخر القرن أخذ عدد من الهنود يدخل الخدمة العامة ، وحتى بعد سنة ١٩١٩ لم تكن نسبتهم كبيرة ، وكانت الخدمة العامة تقوم بجمع الضرائب والمحافظة على القانون والنظام وكان القضاة يختارون من بين موظفيها .

وكان هنالك إدارة بروقراطية هندية كبيرة تحت إشراف الخدمة العامة ورقابتها الشديدة ، وكان يختار موظفوها على أساس إقليمى وجميعهم من الهنود وكانت سلطة الحكومة تصل إلى الجماهير عن طريق هذه الطبقة من الموظفين الهنود ، وكان الإشراف والسيطرة والتوجيه محصورة مع ذلك فى يد

الموظفين الأوروبيين ، وكذلك كان نظام البوليس ، فكل موظفى البوليس الكبار كانوا من البريطانيين ، أما صغار الموظفين الذين يقومون بالأعمال العادية فكانوا من الأقاليم الهندية .

وكان الدفاع عن الهند منوطاً بقائد أعلى تعينه الحكومة البريطانية مباشرة ، وكان الجيش الهندى مكوناً من جنود هنود تحت إشراف ضباط من الإنجليز وكان هناك فرق من الجيش الإنجليزى مقيمة بالهند ، والجيش الهندى العظيم الذى كان أهم وسائل الإنجليز لتوطيد سلطانهم فى الشرق والذى عرفت شجاعته فى الحرب القارات الثلاث كان جنوده من الهنود ، ولكن ضباطه فى تلك الفترة كانوا جميعهم من الأوربيين ، وبعد حدوث الثورة الهندية كانت الحكومة البريطانية تحتاط أشد الاحتياط فى مراعاة الشعور الدينى للجنود فى المسائل المتصلة بالدين ، وهذا من الأسباب الرئيسية التى جعلت الحكومة البريطانية لا تشجع الإرساليات الدينية تشجيعاً رسمياً .

وقد اقتضى اعتماد الإنجليز فى تكوين الجيش الهندى على الهنود أتباع سياسة خاصة ملائمة فى أختيار الجنود الصالحين فقد عنيت السلطات البريطانية بأن يكون الأفراد الذين يقع عليهم الاختيار للالتحاق بالجيش بعيدين عن التأثر بالنزعات السياسية ولذا رؤى أن يكون الاختيار مقصوراً على جماعات محدودة يمكن استمالتها واسترضاؤها وكسب ودها ، ولذلك أشاع البريطانيون نظرية الشعوب المحاربة ، واعتبروا المهراتا الذين أظهروا قدرة حربية فائقة وشجاعة من الشعوب غير المحاربة ، وأصبح الاختيار للجندية

من السيخ والراجبوتيين وأهل البنجاب المسلمين والبلوخستانيين وغيرهم من الجماعات المحظوظة ، وقد سار البريطانيون فى ذلك على سياستهم المعهودة سياسة فرق تسد .

وقد استطاعت بريطانيا أن تتملك ثلاثة أخماس الهند بطريق الغزو ، وكان الخمسان الباقيان لا يزالان تحت سيطرة الأمراء ، وكان بعض هؤلاء الأمراء يمثلون بقايا الأسر القديمة مثل مهراجا راجبوت ومهراجا ميسور وتراڤانكور وكوشان ، وبعضهم الآخر مثل مهراجا حيدر أباد وولايات المهراتا وكشمير كانوا يمثلون سادة الحرب الذين عقدوا صلحاً مع شركة الهند الشرقية حينما رأوا تزايد قوتها ، ولكن حكام الهند البريطانيين بعد أن توطدت سلطتهم فى الجهات التى حكموها حكماً مباشراً بدأوا سياسة إخضاع الأمراء المستقلين بالتدخل المنظم فى شئونهم ، ففى سنة ١٨٧٥ خلع مهراجا بارودا ، وكان من أقوى مهراجات الهند ، وكانوا يفرضون على بعض هؤلاء الحكام ضباطاً دبلوماسيين مزودين بسلطة كبيرة ، أو يحدون من سلطانهم ، وقد استطاعوا بذلك إخضاع هؤلاء الحكام جميعهم للحكم البريطانى ، وقد اقتدى بالبريطانيين الفرنسيون فى الهند الصينية ، واليابانيون فى منشوريا ، وأصبحت الهند بهذه الطريقة وحدة سياسية قوية خاضعة لسلطة حكومة لندن .

وكانت السيطرة على الأحوال الاقتصادية بالهند فى تلك الفترة فى أيدى البريطانيين ، وكانت الهند سوقاً محتكرة للتجارة البريطانية فى إبان تمدد حياتها الصناعية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ونتيجة للثورة

الصناعية أصبحت لانكشاير أكبر منتج للسلع القطنية فى العالم ، وأصبح لها فى الهند سوقاً غير محدودة حتى ظهور صناعة المنسوجات الهندية ، وحتى فى تلك الحالة استطاعت المصالح البريطانية أن تفرض عليها ضريبة تحرمها من حماية التعريفة الجمركية الصغيرة ، وعهد فى إنشاء السكك الحديدية فى الهند إلى شركات إنجليزية ، وكانت مزارع الشاى والصمغ الهندى والبن والنيلة تمول من الرأسماليين البريطانيين ، وكانت مساحات شاسعة فى آسام وبيهار وهضبات جنوب الهند تشبه مستعمرات يزرعها أصحاب المزارع ولهم سلطة محلية أعلى من سلطة الحكومة نفسها ، وكان العامل الهندى فى تلك المزارع عبداً قناً لصاحب المزرعة يتصرف به كيف يشاء ، وكان قانون العقوبات يفرض عقود العمل ، وكانت جرائم القتل التى يرتكبها مديرو هذه المزارع لاعقاب عليها ، وكانت تلك المستعمرات الأوربية تفرض سلطانها غير المحدود فى تلك المزارع ، وكان هذا السلطان مجرداً من السماحة والإنسانية .

وقد شجعت حكومة الهند بعد سنة ١٨٥٨ إقامة الأوربيين فى تلك الأنحاء ، وسهل اللورد كاننج حصول الأوربيين على الأرض بإصدار قانون سماه قانون الأراضى البور ، وبموجب هذا القانون أعطيت للأوربيين مساحات واسعة من أراضى التلال لتمكينهم من الإقامة فى جو أكثر ملاءمة لهم ، وإيجاد مزارع واسعة ، وقد أدى اتباع هذه الطريقة فى آسام ونيلجيرس إلى إيجاد مستعمرات زراعية كثيرة ، وأحضر من جزائر الهند الغربية بعض أصحاب زراعة النيلة من الأوربيين ، وقد أوجدوا نظاماً نصف إقطاعى فى

الأرض التى أقاموا بها ، وقد استغلوا المزارعين أسوأ استغلال وأذلوهم واستعبدوهم ، وكانت الحكومة تغض الطرف عن ذلك كله لأن هذا الاستغلال الفظيع كان لمصلحة رأس المال البريطانى ، والواقع أن الحالة فى هذه المزارع خلال ذلك العهد حتى ظهور القومية الهندية بعد الحرب الكبرى كانت تبين قسوة الأوربيين فى معاملة إخوانهم الهنود .

ولم يكن احتكار الإنجليز للمنافع فى الهند قائماً على المزارع وحدها ، بل كان يشمل بناء السفن والمصارف والتأمين والسيطرة على التجارة فى داخل البلاد عن طريق التوزيع ، لأن أصحاب رءوس الأموال الهنود وقد علموا أن فرص الاستغلال لا تكاد تكون متاحة لهم لذلك نصبوا أنفسهم عملاء للشركات البريطانية ، وفى أوائل ذلك العهد لم يفكر الإنجليز فى إنشاء مصانع فى الهند ، وكان الجوت الخام يصدر إلى دندى ، ولم توافق الشركات فى دندى على إنشاء مصانع فى هوجلى إلا بعد أن عرفت أن تكاليف العمل أقل ، وكانت الهند تصدر المواد الخام ، ولم تكن الهند فى القرن التاسع عشر سوقاً للبضائع الإنجليزية فحسب بل كانت كذلك مصدراً رئيسياً لتصدير المواد الخام إلى بريطانيا .

وقد صارت الهند فقيرة بسبب استنزاف ثروتها واستغلال مواردها ، وفى أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان رأس المال البريطانى يستغل الهند ومواردها بغير منافس ، ويجنى من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، وكان يساعد رأس المال البريطانى الحكومة المحلية باتباع سياسات اقتصادية تقرها السلطات البريطانية فى لندن .

وكان من الاعتقادات الراسخة عند السلطات البريطانية فى ذلك العهد أن الأوربيين بطبيعتهم وتكوينهم وأرومتهم الشعبية متفوقون على الهنود ، وأن البريطانيين ينتسبون إلى شعب واحد ليسود ويحكم سواء فى ذلك كبيرهم وصغيرهم وأعاليهم وأسافلهم ، وقد ظل هذا الاعتقاد غالباً عليهم ، تنم عليه كلماتهم ، وتصرفاتهم ، وظل راسخاً فى عقولهم حتى الحرب الكبرى الأولى ، ومن أقوال لورد كتشنر وكان من القواد البريطانيين البارزين فى الهند « هذا الشعور بالتفوق الفطرى عند الأوربيين هو الذى كسب لنا الهند ومهما كان الوطنى حسن التعليم وبارعاً ومهماً أثبت أنه شجاع فإننى أعتقد أننا لا نستطيع أن نمنحه رتبة تجعله مساوياً للضابط البريطانى » .

وكان هذا التعصب الشعبى متفشياً فى كل ناحية وهو طابع مميز للحكم البريطانى فى الهند خلال القرن التاسع عشر ، ففى الجيش كان لا يرقى الهندى إلى رتبة ملازم أول ، وفى الخدمة المدنية كان للهنود مستوى خاص من الوظائف لا يتعدونه ، وكان هذا التفريق الشعبى يدخل فى سائر نواحى الحياة الإجتماعية فكان هناك فنادق وأندية وحدائق لا يسمح للهنود بالدخول فيها ، وكانت حياة الهندى تعتبر شيئاً رخيصاً ، فعند ما ارتكب المدعو رُدْ ــ وكان مساعداً لأحد أصحاب المزارع ــ حادثة قتل تدل على القسوة البالغة والجبن وأدين أصبح فى نظر الأوربيين من الشهداء ، وهاجوا وماجوا طالبين إطلاق سراحه ، واللورد كرزون نفسه وهو من دعائم الاستعمار أصبح مكروهاً حيناً من الزمن لأنه عاقب فرقة من فرق الجيش اتهمت بأنها تعمدت حماية أحد القتلة ، والواقع أن العدالة الجنـ

مفتقدة طوال هذه الفترة ، وكان الاقتصاص من الأوربيين متعذراً ، وكثير من حكام الهند العامين تعرضوا للكراهة من الأوربيين لأنهم صرحوا بآرائهم فى هذا الموضوع .

ولقد أظهر الهياج الذى أثاره مشروع ألبرت إلى أى حد قد بلغ شعور البريطانيين بالتفوق فى الشرق ، وكان هذا المشروع يرمى إلى السماح للقضاة الهنود بماكمحة الأوربيين ، وقد أعده المشرع الكبير السير كورتنى إلبرت ، وكان يرمى إلى التسوية بين القضاة البريطانيين والقضاة الهنود ، وكان احتجاج الأوربيين غير الرسميين عجيباً فى هذه المرة ، لأنه كان موجهاً إلى أسمى السلطات فى الحكومة البريطانية نفسها ، وقد كونت العصابات ، وجمعت النقود ، ونظمت الحملات العنيفة ضد الحاكم العام نفسه ، وبلغت القحة بأحد مقاومى المشروع إلى أن يقول « إذا لم تكن الهند وطناً للرجل الأبيض وإذا سلمنا بأن للهنود أى حق على الإطلاق فإلى أين ينتهى ذلك كله ؟ » واعتبرت الفكرة نفسها إهانة للشعب البريطانى ، وكتبت النساء البريطانيات رسائل إلى مواطنهن فى إنجلترا يذكرنهن بما ارتكب من فظائع فى أيام الثورة ، ويذكرن احتجاجهن الصارخ على النزول الشديد بكرامة الجنس الأبيض الذى يستتبع وقوف الأوربيين للمحاكمة أمام قضاة هنود ، ونجح الأوربيون فى ثورتهم واضطر نائب الملك إلى الاستجابة لضغطهم ، وظلت الشعوبية النظرية الرسمية المأخوذ بها لمدة أربعين سنة .

ولما كان هذا الاعتقاد بالتفوق الشعبي هو أساس الحكم لذلك

اقتضى الأمر أن يكون متبعاً فى كل الأمور بدقة وعناية ، وكانت هناك نظم ومراسيم وشعائر للمحافظة على سلطة الرجل الأبيض وتأكيد قيمته ، ورعاية مكانته ، وكانت السلطات البريطانية تتشدد فى مراعاة ذلك ، وتستمسك بفكرة أن الوطنيين يتأثرون بمظاهر العظمة والأبهة ، ويؤخذون بها ، وأن كرامة الرجل الأبيض تستلزم أن يعيش فى سعة ورغد ، ومما يروى فى هذا الصدد أن أسرة مكونة من أربعة اتخذت لها مائة وعشرة من الخدم ، وكان الأوربيون يعتقدون أن هذا الأسلوب من أساليب الحياة فى الهند هو الذى يلائم كرامتهم .

وكانت التقاليد المرعية تحدد اللغة المناسبة لمخاطبة كل طبقة من طبقات الوطنيين المختلفة وكيف تستقبل هذه الطبقة أو تلك وكيف تعامل وهل تكرم أو تحتقر ، ومن يستقبل فى الساحة ، ومن يسمح له بالدخول إلى الشرفة ، أو من يسمح له بدخول حجرة الاستقبال ، ويسمح له بالجلوس ، ومن يضن عليه بذلك ، وكان الذى يسمح له بالجلوس لا بد أن يكون قد أدى خدمات جليلة للدولة بنفسه أو عن طريق آبائه ، واعتقد الأوربيون أنهم يحافظون على مكانتهم بمثل هذه الإجراءات والقواعد والمراسيم ، ولكن اتخاذ هذه الأساليب كان فى الواقع يبعد ما بينهم وبين الهنود ، ويجعل الهنود يضمرون لهم الكراهة ويحتقرون عاداتهم وتقاليدهم ، وهم فى عزلتهم لا يدرون وفى طغيانهم يعمهون .

وغلب على الأوربيين وهم آخر كان له علاقة بنظريتهم فى الكرامة وسمو المكانة ، وهو الاعتقاد بأن الهندى يتأثر بالفخامة والروعة والأبهة ،

فكان لكل جامع ضرائب وكل مأمور حاشيته ونظام مقابلاته ، أما الحكام ونواب الملك فكانت مراسيم المقابلات والحفلات جزءاً من حياتهم الحكومية ، وكان يقصد من وراء تنظيم الحفلات والمواكب التأثير فى نفوس الأمراء الهنود وأفراد الشعب الهندى ، وإقناعهم بعظمة بريطانيا وضخامة ملكها وسعة ثرائها ، ولا نزاع فى أن الشعب الهندى كسائر شعوب العالم تروقه المواكب الزاهية والحفلات اللامعة ومشاهد الروعة والأبهة ، ولكن اعتقاد الأوربيين أن كرامتهم لا تصان إلا بمثل هذه المظاهر الفخمة كان وهماً من الأوهام التى غلبت عليهم وأضلتهم ، ودلت على شيء من السطحية فى تفكيرهم هم وأحكامهم ، والذى يرفع قدر الإنسان فى نظر الهنود ويعلى مكانته ليس هو المنصب ولا النفوذ والسلطان وإنما الاشتهار بالصلاح والطيبة والقداسة ، ومن أجل ذلك استطاع الزعيم الهندى العظيم غاندى أن يملأ نفوسهم ، ويقود حركتهم الاستقلالية ، ويتزعمها ، حتى آخر حياته ، وهذه المعتقدات التى غلبت على أذهان الأوربيين جعلتهم يعيشون فى الهند غرباء عن أهلها ، وأقامت حاجزاً ، لا يتيسر اختراقه بينهم وبين الشعب الهندى ، وقد استطاع البريطانيون أن يثبتوا قدرتهم فى ميدان الإدارة ، فوضعوا قوانين وأذاعوها وفرضوها من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وأوجدوا نظاماً محكماً لجمع الضرائب وقاموا بعمل مشروعات للرى سهلت للزارعين الحصول على المياه اللازمة لهم ، وأصلحوا الطرق ، وقد راعوا فى ذلك الأغراض الاستراتيجية ولكن ، هذا الإصلاح ساعد على ربط أجزاء الهند بعضها ببعض ، وسهل التجارة

وأدخلوا السكك الحديدية والأسلاك البرقية والتليفون ونظام البريد الحديث وأنشأ والجامعات والمعاهد الفنية ومعاهد البحوث الطبية والدراسات المختلفة .

وكانت هناك محاولة للإصلاح من الناحية السياسية ولكنها كانت تسير فى بطء شديد ، ففى سنة ١٨٦١ أصدر المجلس الاستشارى الهندى قانوناً بإدخال أعضاء غير رسميين للأغراض التشريعية ، وكان بين الذين رشحوا ثلاثة من الهنود ، وكونت مجالس على هذا النمط فى الأقاليم ، وعمل بمبدأ الانتخاب غير المباشر للتمثيل فى المجالس سنة ١٨٩٢ مع منح الأعضاء حق مناقشة الميزانية وتوجيه الأسئلة فى المسائل التى تمس المصلحة العامة ، وهذا الإصلاح المتواضع أتاح الفرص لنقد الإجراءات الحكومية ، ومكن من المشاركة فى عمل القوانين ، وفى سنة ١٩٠٩ اتخذت خطوة أخرى إلى الأمام ، فمنح المجلس التشريعى الهندى أغلبية من الأعضاء غير الرسميين على أن يختار بالانتخاب سبعة وعشرون من هؤلاء الأعضاء بعضهم يختاره جماعة خاصة من الناخبين مثل أصحاب الأرض والغرف التجارية ، والبعض الآخر يختاره المجالس التشريعية الإقليمية ، وأصبح كذلك للهنود أعضاء فى مجلس الإدارة المركزية وفى مجالس الإدارة الإقليمية ، ثم أدخلت نظم الحكم الذاتى المحلى ، وذلك بإيجاد هيئات إقليمية ، ومجالس بلدية يتاح للعنصر القومى فيها أن يمارس الشئون الإدارية ، وتشجيع نظم الحكم المحلى جعل الناس تألف النظم النيابية ، وأصبح حجر الزاوية فى بناء الدمقراطية الهندية .

وقد أدخل فى الانتخابات نظام كانت له آثاره ومشكلاته فيما بعد ، وهو التفريق فى الانتخابات بين المسلمين والهندوس ، وقد انتهى هذا التفريق بوجود حكومة الباكستان ، ويقول الأستاذ پانيكار فى كتابه عن آسيا وسيطرة الغرب[١] إن هناك وثائق مكتوبة تثبت حقيقة أن هذا التفريق كان خطة مقصودة للتفريق بين المسلمين والهندوس ، وكان يقضى هذا النظام بألا يمثل المسلمين سوى مسلم ينتخبه الناخبون المسلمون وألا يمثل الهندوس فى الإنتخابات مسلم والعكس بالعكس ، وبهذه الطريقة أصبح للمسلمين بالهند من رأس كومورين إلى كشمير وحدة سياسية منفصلة وفى خلاف دائم مع الهندوس ، والواقع أن إقامة الانتخابات على الأساس الدينى قد يكون مدعاة للتشدد فى الدين وبث روح التعصب وتوهين وحدة الدولة

وقد كانت حكومة الهند البريطانية حكومة بيروقراطية تسيطر على كل الوظائف فى الهند إلا أربع وظائف أو خمساً ، وهى وظيفة نائب الملك أو الحاكم العام ، وحكومة البنغال وبومبى ومدراس وعضوية القانون فى المجلس المركزى ، ولذلك كان لهذه البيروقراطية الحكومية النصيب الأكبر فى وضع سياسة الحكومة ورسم طرائق تنفيذها ، وبمرور الزمن أصبح لهذه البيروقراطية تقاليدها فى الاستقامة السياسية والعناية بالشئون الهندية ، فالهند هى البلاد التى كانت تبدأ فيها حياة هؤلاء الموظفين وتنتهى ، ولما كانت هى البلاد التى شاءت المقادير أن تختارهم

---

(١) صفحة ١٥٥ من كتاب بانيكار عن آسيا والسيطرة الغربية

Asia and Western Domination

لخدمتها لذلك كانوا يجعلون خدمتها نصب عيونهم وموضع اهتمامهم ، على أن الهند التى كانوا يخدمونها لم تكن هى هند الشعب الهندى ، وإنما كانت الهند الخاصة التى يتصورونها ، ويعيشون فيها سادة حاكمين ، ولهذه الهند الخاصة كانوا يستشعرون الولاء ، وينظرون إليها على أنها بلاد قد عهد إليهم فى النظر إلى مصلحة الملايين من سكانها حسب ما يقدرون ، وقد أوجد عندهم هذا الاعتقاد إحساساً عجيباً ، كان يوحى إليهم هذا الإحساس أن يقفوا موقف الدفاع عن جمهرة الشعب فى الأمور التى لا تمس مصالحهم ويقابل ذلك من ناحية أخرى سوء ظن عميق بالطبقات المتعلمة التى كانت تناقش الإنجليز فى حق الإدارة المدنية فى الحكم ، وكان من نتائج تطور إدارة الخدمة المدنية فى الهند تكرر وقوع خلاف بينها وبين وزير الهند فى الوزارة البريطانية ، وكان وزير الهند يمثل سياسات الحكومة البريطانية على حين كانت إدارة الخدمة المدنية تمثل السلطات الهندية ، وكانت إدارة الخدمة المدنية تتحدث باسم الهند قبل ظهور الحركة القومية الهندية ، وكان شعارها أن الشاهد الحاضر يرى ما لا يراه الغائب البعيد، لأن الشاهد الحاضر يعلم الملابسات المحلية ، فهو أصدق حكماً وأصح تقديراً ، وكانت إدارة الخدمة المدنية ترفض فى بعض الأوقات قبول الضغط المالى أو البرلمانى الذى يأتى من لندن، وكانت تقف فى بعض الأوقات الأخرى فى وجه مصالح الرأسماليين الإنجليز والتجار وأصحاب الصناعات دفاعاً عن مصلحة الهند ، أى أنها كانت تدافع عن الهند التى تتصورها هند الملايين الصامتة الخرساء ضد

مصالح أصحاب الأعمال وقهارمة الشركات وأساطين المال ، وقد استقال مرة أحد نائبى الملك فى الهند لأنه رفض أن يحمل حكومة الهند على الأخذ بسياسة لمصلحة لانكشاير وليست لمصلحة الهند ، وقد أدى ذلك إلى أن يعلن وزراء الهند المتتابعون أن حكومة الهند خاضعة خضوعاً مطلقاً لسياسة الوزارة البريطانية ، ولكن تنفيذ هذه السياسة كان يواجه صعوبات جمة ، وقد استطاعت حكومة الهند تدريجياً أن تعزز سلطانها ، وقد أدى ذلك فى النهاية إلى تكوين سياسات مستقلة للهند يراعى فيها ما تعده إدارة الخدمة العامة مصلحة الهند ، واستقرار الحكم البريطانى فى الهند جعل الساسة البريطانيين يدركون شيئاً فشيئاً أن لهم فى الهند مورداً ضخماً ، وأن وجود قوة كبيرة لهم فى الهند تمكنهم من أن يكون لهم كلمة مسموعة فى الشئون الأسيوية ، وارتكازاً على سلطتهم فى الهند تدخل الإنجليز فى شئون الصين وإيران وأفغانستان ، وضموا برما إلى أملاكهم ، ووطدوا سلطانهم على شاطىء شبه جزيرة العرب والخليج الفارسى ، والواقع أنه منذ سنة ١٨٧٥ أصبحت الهند حكومة إمبراطورية ومحور خطة الإنجليز السياسية فى آسيا الجنوبية .

وفى عهد ليتون ضمت بلوخستان إلى الهند ، ومنذ سنة ١٨٦٣ أخذت حكومة الهند توجه اهتمامها إلى أفغانستان ، ولما اتسع نفوذ روسيا السياسى فى آسيا الوسطى بدأ اللورد ليتون القيام بمناورات لإخضاع أفغانستان للحكم البريطانى ، وقد افتتح مناوراته بأن طلب من شير على ملك أفغانستان أن يستقبل بعثة بريطانية فى كابول ، ورفض شير على على

هذا الطلب بحجة أن روسيا قد تتقدم بطلب مثله ، وبعد محاولات غير مجدية أدرك فحواها الأفغانيون صمم اللورد ليتون على التدخل وقرر محاربة أفغانستان مخالفاً التعليمات التى تلقاها ، وتقدمت إلى أفغانستان ثلاثة جيوش بريطانية ، ولما عجز الأمير عن الحصول على مساعدة من روسيا هرب من العاصمة وأقر ابنه يعقوب خان معاهدة وافقت فيها أفغانستان على أن تكون سياستها الخارجية خاضعة لحكومة الهند ، ولكن هذا النجاح السريع كان نجاحاً وهمياً ، فقد هاجم الأفغانيون المقيم البريطانى وحاشيته وقتلوهم ، وتداعى البناء السياسى الذى شيده ليتون عبر جبال الهند كوش ، وتقدم الجنرال روبرتس على رأس جيش واحتل كابول ، وأوسع قرى الأفغان حرقاً وتقتيلاً ، ظاناً أنه يعطى الأفغانيين درساً يعلمهم خطر مخالفة أوامر بريطانيا ، ولكن الأفغانيين الأباة رفضوا أن يعوا هذا الدرس ، وحاربوا البريطانيين وجعلوا موقفهم فى بلاد الأفغان غير محتمل ، واضطروهم إلى التماس التسوية السياسية وانسحب الجيش الذى حسب أنه سينال فى بلاد الأفغان نصراً رخيصاً ، ووطد الأمير عبد الرحمن منشىء أفغانستان الحديثة عرشه ، وبالرغم من أنه سلم للبريطانيين بأن يتلقى مندوبهم وألا يدخل فى علاقات مع دول أخرى فانه أنقذ إستقلال بلاده ، وقد كانت حملة الأفغان إخفاقاً حربياً ذريعاً كلف حكومة الهند مبلغاً ضخماً من المال زاد فى دينها العام ، وظل النظام السياسى القائم بأفغانستان والذى وضعت أسسه بعد الحرب متبعاً حتى سنة ١٩١٩ ، فكانت أفغانستان حكومة مستقلة بين دولتين كبيرتين ،

ولكن لحكومة الهند سيطرة خفية على علاقاتها السياسية

وقد نجح البريطانيون فى تدخلهم فى شئون بورما ، ولو أن نجاحهم كان من قبيل الاستعمار التجارى المكشوف ، وقد ضم الجزء الأسفل من بورما إلى الهند فى عهد دلهوزى ، وظل الجزء الأعلى منها مستقلاً ، وكان هذا الاستقلال قذى فى عين المصالح التجارية البريطانية التى كانت ترقب فى جشع أحوال تلك البلاد الكثيرة الخيرات ، وتهيأت الفرصة للتدخل ، وذلك أن حكومة برما فرضت غرامة كبيرة على اتحاد تجارة بومبى بورما ، وهى شركة أخشاب كان للكثيرين من أصحاب النفوذ مصالح مالية بها ، ومنهم بعض أقارب الحاكم العام ، وكان هناك كذلك عذر سياسى ، وهى أن فرنسا كانت توطد أقدامها فى الهند الصينية وسيام ، وتنصب شباكها فى بورما ، ففى سنة ١٨٨٥ أرسل اللورد دفرن إنذاراً نهائياً إلى الملك تيبو ، ولما رفض الملك قبول الإنذار أرسلت قوة إلى مندلى أتمت الغزو فى خمسة عشر يوماً وقبضت على الملك ، وتحملت الهند كالمتبع نفقات هذه الحملة .

أما فى الغرب فقد أظهرت السلطات الهندية البريطانية على الدوام اهتماماً كبيراً بشئون إيران كما تدل على ذلك بعثة السير چون مالكولم إليها فى سنة ١٨٣٠ ، وقد أصبح هذا الاهتمام أشد وأقوى حينما وطد الروسيون مركزهم فى حدود إيران الشمالية ، ولم تكن المسألة هناك مسألة هندية خالصة ، وإنما كانت صراعاً بين روسيا وانجلترا على النفوذ فى الشرق الأوسط ، أما فى التبت فكان تدخل الإنجليز من أجل ما زعموه مصلحة

الهند وحدها ، ففى أواخر القرن الثامن عشر قامت محاولات لإيجاد تجارة مع بلاد التبت ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، وفى سنة ١٨٨٦ أغار التبتيون على سكّيم زاعمين أن لهم حق السيطرة عليها ، ولكن حكومة الهند تدخلت وكان لها علاقات بحاكم سكّيم وطردت الغزاة منها فى سنة ١٨٨٧ ، وكونت بعد ذلك لجنة فى سنة ١٨٩٠ لتعين الحدود وتم فى الوقت نفسه اتفاق على التبادل التجارى ، ولكن أهل التبت حالوا دون تنفيذ هذا الاتفاق ، فلما جاء اللورد كيرزون إلى الهند حاكماً عاماً تغير الموقف وبدا له أن يعد اعتزال التبت ورفض دلاى لاما العلاقات مع العالم الخارجى إهانة لبريطانيا ونفوذها فى الهند ، وسرعان ما وجد الحجة لمهاجمة التبت ، وكانت الحجة فى هذه المرة أن روسيا تحاول أن تسيطر على دلاى لاما ، وتقدم اللورد كيرزون بطلبات من حكومة التبت لا يمكن إجابتها ، ولما رفضت الطلبات زعم اللورد كيرزون أن حكومة التبت قد ناصبت بريطانيا العداء ، وعبرت حملة الحدود ، وتغلبت على التبتيين الذين كانوا يحملون أسلحة قديمة ، وتقدمت الحملة من لحسه لتظفر بفخر الاستيلاء على المدينة المقدسة ، وهرب دلاى لاما إلى منغوليا ، وفرضت معاهدة على نائبه ، وهال الحكومة البريطانية المظهر الاستعمارى الذى اتخذته الحملة وضعف حجة اللورد كيرزون فى مهاجمته لبلاد التبت ، وأرغم الموقف الدولى حكومة الهند على سحب جيوشها ، وتم الاتفاق مع روسيا على الاعتراف بسيادة الصين على بلاد التبت .

تراجع النفوذ البريطانى فى الهند

كان الاحتفال بتتويج الملك جورج الخامس الذى أقيم فى مدينة دلهى سنة ١٩١١ غاية ما بلغه النفوذ البريطانى فى الهند ، فى قاعة شاه جهان العظيمة تلقى الملك جورج ولاء الأمراء العظام وأعلام الرجال ، وكان أبناء البيوتات الهندية وصفاء للملك والملكة فى الحفل المقام ، وكان الحكام الهنود يجدون من التشريف لهم أن يكونوا أركان حرب لجلالته ، وكان يبدو أن جمهرة الشعب راضية عن ذلك ، وقد احتواها السرور وعمها الابتهاج فلم يرتفع صوت بالمعارضة والاحتجاج والمطالبة بالحقوق المسلوبة ، وموجز القول أن هذا الاحتفال كان معرضاً لإظهار قوة بريطانيا وعظمتها ، ولكن بالرغم من كل هذه المظاهر اللامعة كان فى البيان الذى أذيع فى الاحتفال قرار له معناه ودلالته ، وهو قرار إلغاء تقسيم البنغال ، وكان اللورد كرزون يعد هذا التقسيم من براعاته السياسية ، ولكن الأهالى لم يرقهم ذلك ، وظلوا يعارضونه بشدة حتى أجيب طلبهم فى الحفل العظيم ، وقليل من الذين حضروا هذا الاحتفال الفخم من أدرك أن نفوذ بريطانيا الذى بلغ فى ذلك اليوم حد الكمال قد بدأ يتناقص ويؤذن بالزوال .

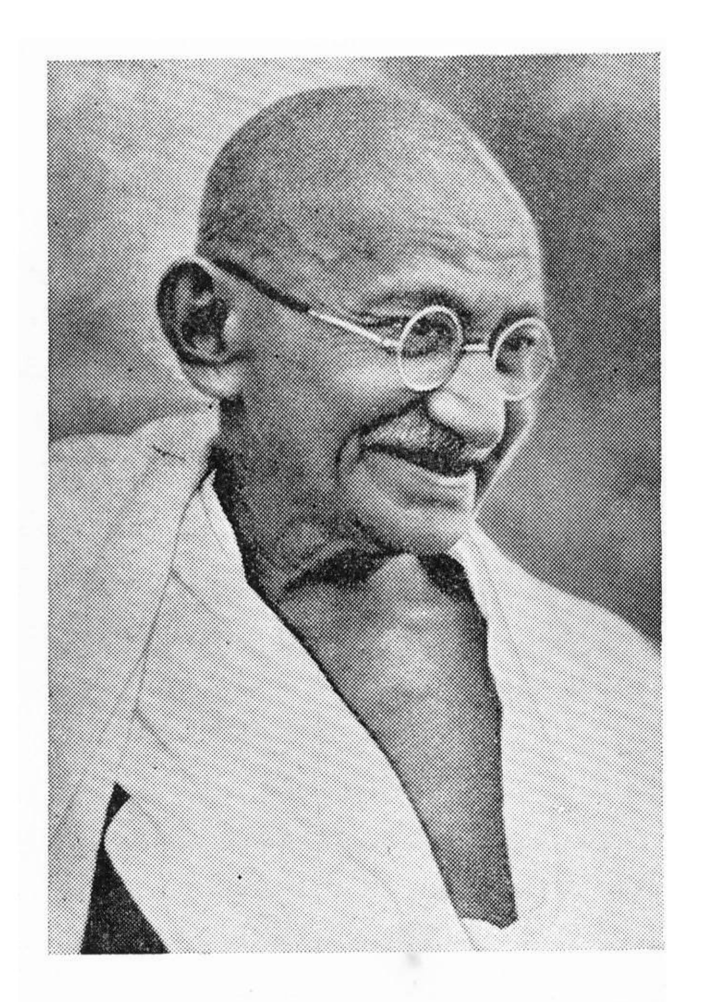
ووقع حادث آخر دلّ على تغير الأحوال وتبدل الظروف ، فبعد أشهر قلائل حينما دخل اللورد هاردنج إلى العاصمة الجديدة فى دلهى وكان

قد نقل العاصمة من كلكوتا إلى دلهى ، ألقى عليه ثائر بنغالى اسمه راش بهارى قنبلة، ولما شبت الحرب الكبرى الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ كانت الهند هادئة ، ولكن لما تقدمت الحرب وأخذت تظهر آثارها أصبح الحكم الذاتى مطلوباً بإصرار وإلحاح ، ووافق المحافظون أنفسهم وعلى رأسهم أوستن شامبراين على أن الوقت قد حان للسير بالسياسة الهندية فى سبيل التقدم ، وطرأ على التفكير السياسى البريطانى فى الهند تغير ملحوظ فى ذلك الوقت ، وأعلنت الحكومة البريطانية فى أغسطس سنة ١٩١٧ أن سياستها فى الهند ترمى إلى التقدم التدريجى بنظم الحكم الذاتى الذى يرمى إلى إيجاد الحكومة الهندية المسئولة باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية البريطانية .

وقد كانت فكرة الحكومة المسئولة دليلاً على اتجاه جديد ، ولكن لوحظ أنها كانت غرضاً بعيداً ، وإن المقترحات لا تعدو إنماء نظم الحكم الذاتى ، وأن هذا الإنماء نفسه سيكون تدريجياً ، ولم يعجب هذا أهل الهند ولم يرضهم ، ولما وافق البرلمان على الإصلاح المسمى إصلاح مونتاجيو شلمز فورد وأخذت الحكومة فى تنفيذه لم يلق تأييداً يذكر ، وإذا تركنا جانباً الاختلاف على نظام الحكم فى الهند نجد أنه كان هناك تقدم فى نواح أخرى ، فى مجلس الحرب الذى أنشأه لويد جورج فى لندن اختير هنديان ، ودعيت الهند إلى مجلس المباحثات الإمبراطورية وكان هذا المجلس مقصوراً على أعضاء الكومنولث التى تتمتع بالحكم الذاتى ، وارتفعت مكانة الهند من الناحية الدولية حتى تمكنت من أن تطالب بمقعد فى مؤتمر الصلح ، وجعلت صوتها مسموعاً فى المسائل التى تمس مصالحها .

ولما وضعت الحرب أوزارها عم السخط على الإصلاحات المقترحة ، ونقم المسلمون الهنود على الحكومة البريطانية قسوتها فى معاملة الأتراك وتمزيقها الدولة العثمانية ، واشتد السخط حتى أخاف السلطات البريطانية فى البنجاب ، وأعلنت الحكومة الإقليمية الأحكام العرفية ، وأخذت كل الاحتياطات الممكنة لإخماد ماعدته ثورة ، ووقعت حادثة أمرتسار التى أطلق فيها الإنجليز المدافع الرشاشة على المواطنين العزل ، وزادت هذه القسوة الهند هياجاً واضطراباً ، واستحال هذا الهياج والسخط والنقمة حركة قومية شاملة ، وقد استنكر الكثيرون فى بريطانيا نفسها حادثة امرتسار وفى ذلك الوقت تولى المهاتما غاندى الحركة القومية ، وبدأ حركة عدم التعاون .

وكانت أفكار غاندى بسيطة واضحة ، فقد رأى أن سلطة البريطانيين فى الهند قائمة على تعاون جميع الطبقات معهم ، فإذا أمكن سحب هذا التعاون لم تستطع الحكومة البقاء وقضى الأمر ، وأدرك غاندى أن هذا البرنامج لسحب التعاون لا ينجح فى دولة يبلغ تعداد سكانها أربعمائة مليون إلا إذا انتبه الناس من غفلتهم ، واستيقظوا من رقادهم ، وأنه لا بد لهم أن يستشعروا الدافع الأدنى إلى العمل ، وأن الحركة لا بد أن تنظم تنظيماً دقيقاً ، وأن تقوم على مبدأ يفهمه الجميع ، وقد اعتقد غاندى أنه وجد هذا المبدأ فى مسألة عدم العنف ، وكان الرأى العام الإسلامى فى ذلك الوقت ثائراً على الحكومة البريطانية لمضيها فى تقسيم تركيا بين الحلفاء الغربيين ، وهاج المسلمون الهنود وماجوا مطالبين بالمحافظة على الخلافة ، وقد قبل غاندى ذلك وعده جزءاً من برنامجه القومى .



المهاتما غاندی

ومرت حركة عدم التعاون تحت قيادة غاندى بثلاث مراحل ، المرحلة الأولى مرحلة تحالفه مع الزعماء المطالبين بالمحافظة على الخلافة ، وبدئه الحركة وجعلها حركة شعبية قوية رهيبة ، وكانت هذه المرحلة فيما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٤ ، والمرحلة الثانية للحركة بدأت بالتقدم فى داندى وهى من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٢ والمرحلة الثالثة مرحلة « أخرجوا من الهند » وهى فى سنة ١٩٤٣ ، وقد توجت الحركة الغاندية بالانتصار فى أغسطس سنة ١٩٤٧ حينما وافق الإنجليز على الخروج من الهند وانهوا العهد الذى بدأ بمعركة بلاسى سنة ١٧٥٧ .

والفترة التى أعقبت سنة ١٩١٩ كانت فترة التطور النيابى والبرلمانى فى حكومة الهند ، فاصلاحات مونتاجيو شلمز فورد أوجدت حكومة برلمانية ذات تبعة جزئية فى الأقاليم ، وبموجبها أصبح فى يد الوزراء الشعبيين تبعة التشريع واتسعت سلطتهم فى مسائل أخرى كثيرة ، ولكن المحافظة على النظام والقانون والشئون المالية ظلت فى يد البريطانيين ، وقد رفض الرأى العام الهندى هذا النظام ولكن العناصر التى تميل إلى البريطانيين ظلت تعمل بموجبه فى الأقاليم ، وقد ظل متبعاً فى الأقاليم حتى سنة ١٩٣٦ ، وبالرغم من أنه لم يكن نجاحاً سياسياً باهراً وعارضه حزب المؤتمر ولم يتحمس له الشعب إلا أنه مع ذلك كان يوضح تراجع البريطانيين عن موقفهم الاستعمارى .

أما أهم المراحل فى تراجع البريطانيين الاستعمارى فكانت أولا الاتفاق على الاستقلال المالى ، وبموجب هذا الاتفاق تعهدت الحكومة البريطانية

بألا تتدخل فى المسائل المالية التى تؤثر فى مالية الهند حينما يكون هناك اتفاق بين مجلس الهند التشريعى وحكومة دلهى ، وجوهر هذا الاتفاق ألا يسمح للمصالح البريطانية بأن تتغلب على مصالح الهند فى رسم سياسة الحكومة ، والمرحلة الثانية فى تقدم مطالب القومية الهندية وتراجع المصالح البريطانية هى قبول البريطانيين مبدأ حماية ما تخرجه المصانع الهندية ، وإنجلترا نفسها قد أعرضت فى بطء وتردد عن سياسة التجارة الحرة ، واتخذت طريقة لحماية نفسها ، ولذا لم تجد من المنطق أن تقاوم سياسة حكومة الهند فى اتخاذها مبدأ التعريفات الحذرة لحماية صناعاتها الحديثة العهد ، وقد أفادت من ذلك صناعة الصلب والسكر والأسمنت والحرير والقطن ، وقد أتاحت هذه السياسة للهند فرصة التقدم الصناعى ، وقد استطاعت المصالح البريطانية مع ذلك أن تمنع حماية صناعة السفن .

وقد كان إنشاء مصرف احتياطى الهند أول خطوة لتحرير الروبية الهندية من سيطرة سوق لندن ، وتقدم المصرف الهندى والتأمين فى تلك الفترة ، وكان ذلك من علامات تزايد قوة رأس المال الهندى ، وقد شهرت حركة عدم التعاون سلاح مقاطعة التجارة الأوربية ، وقد أقنع ذلك أصحاب الصناعات الأوربية أن أيام نفوذهم الذى لا يقاوم قد أدبرت ، ولذا صحت رغبة أصحاب رؤوس الأموال البريطانيين على التعاون مع رأس المال الهندى فى ميادين محدودة ، واتجهت حكومة الهند تحت تأثير ضغط الرأى العام إلى سياسة تأميم السكك الحديدية ، وفى مدى عشرين سنة أصبحت خطوط السكك الحديدية التى كانت تملكها الشركات البريطانية

ملكاً لحكومة الهند ، وكان لإقصاء الشركات البريطانية من هذا المجال وتولى حكومة الهند إدارة تلك الخطوط معنى كبير ودلالة بعيدة .

وتقدمت القومية الهندية فى ميدان الإشراف التنفيذى تقدماً مستمراً ؛ وقد كان ضباط الجيش الهندى قبل الحرب الكبرى جميعهم من البريطانيين فخضعت الحكومة لضغط الرأى العام المتوالى ، وبدأت بعد الحرب تختار ضباطاً من الطلبة الهنود بعد تدريبهم فترة من الزمن فى سندهرست ، وقد كان تهنيد الجيش الهندى من المطالب التى أصرت عليها جميع الأحزاب ، وقد تولى هؤلاء الضباط الهنود زمام الجيش لما نالت الهند استقلالها ، وأنشىء أسطول هندى فى سنة ١٩٢٤ ، وكونت فرقة طيران واختير ضباط من الهنود فى كليهما ، وبالرغم من أن القوات الحربية فى الهند كانت لا تزال خاضعة للبريطانيين إلا أن هذه التعديلات التى أدخلت على الجيش الهندى كانت تراجعاً من جانب البريطانيين وتقدماً فى سبيل تحقيق استقلال الهند .

وفى مجال الوظائف الإدارية أثر الضغط السياسى تأثيراً قوياً ، واستطاع أن يحصل للهنود على ٥٠ ٪ من الوظائف الكبيرة ، وكان البريطانيون قد نظموا الادارة على أساس بيروقراطية هندية يوجهها ويسيطر عليها ما كان يسمى بالإدارات العليا ، وهذه الإدارات العليا كانت تكاد تكون مقصورة على البريطانيين ، وقد عين فى هذه الإدارات بعض الهنود قبيل انتهاء القرن التاسع عشر ، ولكنهم كانوا قلة قليلة ، أما بعد الحرب الكبرى فأصبح الامتحان الذى يختار به موظفو هذه الإدارات يعقد فى الهند ذاتها ،

وكثرت نسبة الهنود فى الاختيار لهذه الوظائف ، وقد أثر ذلك تأثيراً بطيئاً ولكنه كبير الأهمية فى طبيعة الحكومة الهندية .

وكان عدد النواب الهنود فى المجلس المركزى بعد الحرب ٥٠ ٪ ولكن كان يحتفظ للأوربيين بوظيفتى وزير المالية ووزير الداخلية ، أما فى الأقاليم فكانت النسبة أكبر ، وفى بعض الأحيان كان يتولى وزارة المالية أحد الهنود ، وهكذا تراجعت السلطة البريطانية بالهند فى ميادين السياسة والاقتصاد لتلائم بين مطالب القومية الهندية والسلطة الاستعمارية البريطانية

وسبق أن ذكرنا أن اصلاحات سنة ١٩١٩ لم ترض الرأى العام الهندى ولذا عينت حكومة بالدون المحافظة فى سنة ١٩٢٨ لجنة البحث المسألة من جميع نواحيها ، وتقديم تقرير مفصل ، وقد اعترف هذا التقرير بضرورة التغيير السريع والتقدم بالمطالب الهندية ، ولكنه لم يوص إلا بحكومة ذاتية محدودة مع حكومة إقليمية ذاتية . ومجلس فيدرائى مركزى ، وبطبيعة الحال لم يرض هذا الاقتراح أمانى الهند القومية ، وزاد فى هياج الأحزاب وتبرمها ، وفى الوقت نفسه جاءت إلى الحكم فى بريطانيا وزارة من حزب العمال على رأسها رمزى ماكدونالد ، وبدأت محاولات للتقريب بين وجهات النظر ، وعقدت سلسلة من الاجتماعات بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٣ بحثت فيها المسائل التى تهم الهند وبريطانيا وقلبت على جوانبها المختلفة ، وقد مثل فى أحد هذه الاجتماعات المهاتما غاندى حزب المؤتمر الهندى ، وأدت هذه الاجتماعات إلى إنشاء حكومة فيدرائية قائمة على حكم الولايات الذاتى وحكومات الأمراء ، ولكن هذا النظام كان له عيوبه فى نظر نقاد الهنود ،

فقد رأوا أنه محاولة لإيجاد حكومة مكونة من الأمراء الإقطاعيين الأحياء والأحزاب الرجعية القائمة على أسس دينية ، ورأوا فضلاً عن ذلك أنه يحد من سلطة الحكومة المركزية بمنحه ضمانات خاصة لأصحاب الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال من البريطانيين وأن فيه فقرات ترمى إلى حماية حقوق الأمراء الحاكمين وبعض الطبقات الخاصة ، وقد رفض المؤتمر هذه الإصلاحات الجديدة ، ولكنه استولى على الحكم فى الولايات سنة ١٩٣٦ واستطاع أن يلغى الكثير من القوانين التى فرضها النظام الجديد ، وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه بأعباء الحكم فى الولايات حكومات المؤتمر نشبت الحرب الكبرى الثانية ، واستدعى ذلك تعطيل التجربة النيابية .

الهند فى طريق الاستقلال التام

واضح مما تقدم أن السيادة البريطانية كانت دائمة التراجع فى فترة ما بين الحربين ، وقد اختفت فكرة السيادة الإمبراطورية القديمة منذ الحرب الكبرى الأولى ، وكانت المناورات السياسية بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٩ ترمى إلى إرجاء الانسحاب ، وكانت السلطات البريطانية تؤمل أنها تستطيع بمعرفتها السياسية وخبرتها المستفيضة أن تعدل أو تحد من الاستقلال الذى كانت تعرف معرفة تامة أن الهند لا بد أن تظفر به فى النهاية ، وقد حاولت أن تحقق ذلك بخلقها طبقات ومصالح تؤيدها فى موقفها ، وكانت الخطة الأصلية تهدف إلى فصم وحدة الهند بفصل ولايات الأمراء التى تكون خمس مساحة الهند وجعلها تحت حكم التاج البريطانى مباشرة ، وقد حاول البريطانيون ذلك منذ بدء حركة الإصلاح ، ففى سنة ١٩١٧ حينما كانت إصلاحات مونتاجيو شلمز فورد معروضة على بساط البحث اتخذت خطوات لإيجاد مجلس للأمراء ، ولكن لما كانت مسألة استقلال الهند التام غير منظور إليها فى ذلك الوقت لذلك لم يشجع طلب الأمراء التحرر من سلطة الحكومة المركزية ، ولكن لما قويت حركة عدم التعاون وأصبحت هناك مطالبة بالدمقراطية الحديثة واسعة النطاق صار الاتفاق بين مطامع الأمراء الطامعين فى الولايات الكبيرة والرجعيين البريطانيين سهلاً ميسوراً ،

وظهرت نظرية أن السيادة على الأمراء من امتيازات التاج البريطانى ، وأن علاقة أمراء الهند ليست بالهند وإنما بالحكومة البريطانية مباشرة، ولكن محاولة التوفيق بين مطامع حكام الأسر الأوتقراطيين والمصالح الإمبراطورية البريطانية لم تنجح ، فقدعارضها بعض الحكام المستنيرين ، لأنهم تحققوا أن مقاومة المطالب القومية سيعد عملاً غير وطنى يوسع شقة الخلاف بينهم وبين رعيتهم ، وأن السياسة القصيرة النظر التى ترمى إلى صدع وحدة الهند ستكون فى المدى المتطاول وبالاً عليهم، ومن هنا نشأت فكرة إيجاد حكومة فيدرائية فى المركز باتحاد جميع الولايات وحكومات الأمراء ، وحاولت المصالح البريطانية أن تحمى نفسها فعملت على أن يكون فى الحكومة المركزية نواب للأمراء مع الجماعات الدينية الرجعية ، وأن يكون لهما الأغلبية .

وعارض القوميون مشروع سنة ١٩٣٥ ولم يوافق عليه المسلمون الهنود ، لأنهم كانوا يطالبون بحكومة منفصلة مع الاستقلال التام ، ولذلك أخفق المشروع ، ولما أيقنت الحكومة البريطانية أن مشروعها قد منى بالفشل أرسلت السير ستافورد كريبس ليعرض مشروع معاملة الهند كدول الكومنولث مع قيود خاصة تزول عند انتهاء الحرب ، ولكن هذا المشروع أخفق كالمقترحات السالفة ، وأخيراً ظفرت الهند باستقلالها سنة ١٩٤٧ بعد أن فصلت عنها الولايات التى للمسلمين فيها أغلبية ، وكونت منها دولة الباكستان ، وقد انتهت السيادة البريطانية فى الهند فى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ حينما أسقط ملك بريطانيا لقب إمبراطور الهند .

حركة الإصلاح فى الهند

حركة الإصلاح الهندى فى القرن التاسع عشر من الحركات الكبيرة التى لها مكانها فى التاريخ الحديث ، وقد سارت فى بطء تحت ستار النفوذ البريطانى ، ولم تكن دائماً بارزة للعيان لافتة للأنظار ، ومن أسباب خفائها برغم أهميتها أنها كانت بطبيعتها حركة داخلية لم تمس الحوادث الخارجية ولم تؤثر فيها ، ولكن استقلال الهند وظهورها على مسرح الحوادث فى العهد الأخير لم يكن ميسوراً لو لا هذه الحركة الخفية البطيئة التى بدأت منذ حوالى مائة سنة .

ولكى نقدر هذه الحركة تقديراً كاملاً لابد أن ننظر إلى موقف الديانة الهندوسية فى أوائل القرن التاسع عشر ، فنفوذ الإسلام واستعلاء كلمته فى حوض نهر الكنج ونهر السند ترك الديانة الهندوسية فى حالة من الضعف والاستكانة ، فقد كانت ديانة الشعب المغلوب على أمره ، وكان السادة الغالبون يعدونها ديانة وثنية تعيش فى ظل تسامح الأسلام ، ولما بسط البريطانيون نفوذهم فى شمال الهند وتقلص ظل الدول الإسلامية الغالبة صارت الهندوسية ترى أنها فى مستوى الإسلام ، ولكنها لم تنعم طويلاً بهذه الفكرة ، فقد جاءها من الغرب منافس جديد شديد الخطر ، فقد شعرت الإرساليات الدينية أن فى الهند أرضاً بكراً ، ومجتمعاً يؤذن بالتحلل ،

فنشطت وأعدت العدة لتلعب دورها واتدخل الناس فى المسيحية أفواجاً ، وقد جاءت هذه الإرساليات إلى الهند مسلحة بسلاح الدعوة ، وقد كانت نتيجة الهجوم المسيحى على الهندوسية قيام حركة بين متعلمى الهندوس فى سبيل الإصلاح الاجتماعى الدينى ، وقد تزعم هذه الحركة رام موهان روى (١٧٧٢ — ١٨٣٣) الذى يعد منشئ حركة الإصلاح الهندوسى ، وهو من اسرة برهمية محافظة ، وقد نشأ هندوسياً متشدداً ، ولكنه تثقف ثقافة إسلامية مثل سائر الهندوس الذين كانوا يؤملون دخول الخدمة العامة فى ذلك العصر ، ولما التحق بخدمة شركة الهند الشرقية كان متمكناً من العربية والفارسية ، وقد وصل فى الشركة إلى درجة لا بأس بها ، وبرز وعرف ، وفى خلال تلك المدة درس اللغة الإنجليزية ، وفتح له ذلك آفاق الفكر الغربى الحر ، وكانت أوروبا فى ذلك الوقت متأثرة بأفكار عصر الاستنارة وآراء الانسيكلوبيديين ، وقد بدأت تظهر آراء بنتام والفلاسفة النفعيين فى إنجلترا ، وكان لذلك كله تأثير فى تقدم الهند الفكرى .

وكان رام موهان لا يرى حوله فى الهند سوى أطلال وخرائب ، فالحكم الإسلامى قد انهار وترك الفوضى ضاربة فى كل منحى من مناحى الحياة ، واستحالت الهندوسية فى البنغال مستقر قوتها وازدهارها إلى خرافات ومبالغات لاطائل تحتها ولا خير فيها ، ولما كان رام موهان باحثاً عن الحق فقد تحول إلى المسيحية التى تبشر بها الإرساليات ، ودرس العبرية واليونانية ليحسن فهم المسيحية ، ولكنه فى الوقت نفسه كان مستغرقاً فى دراسة التفكير الأوربى الحر ، وتطور تفكيره فرفض المسيحية وقبل أفكار النزعة الإنسانية

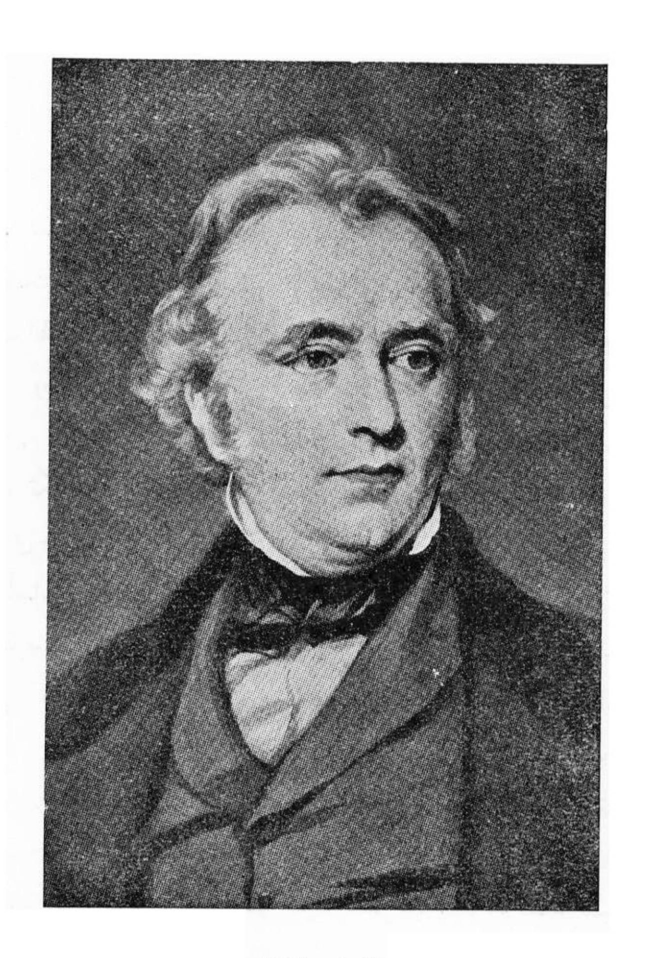
فى الفكر الأوربى ونظرتها إلى الأخلاق وتناولها لمشكلات الحياة ، ولما نبذ المسيحية رأى أن الهندوسية فى حاجة ماسة إلى شرح يفسر غوامضها ويجلو أسرارها ، وقد حاول ذلك بإيجاد جماعة البراهمو ساماج ، وعقيدة البراهمو ساماج تقوم على أساس هندوسى ، ولكن نظرتها إلى الحياة ليست مسيحية ولا هندوسية ، وإنما هى نظرة أوروبية تستمد وحيها من حركة القرن الثامن عشر الفكرية ، ومعنى ذلك أن الهند منذ سنة ١٨٢٠ بدأت تتصل بتيار الفكر الغربى وتفيد من ثمرات الثقافة الأوربية ، وكانت عقيدة البراهمو ساماج ترمى إلى الاتجاه نحو الغرب وتطهير الهندوسية من الخرافات الفاسدة والعادات البالية ، والتقاليد السخيفة التى أثقلتها ، وطغت عليها ، ورفع مكانة المرأة ، ومحاربة النظام الطائفى حرباً لا هوادة فيها والقضاء على كل العيوب والمساوئ المتفشية ، وكان الهندى المتعلم الذى أثرت فى تفكيره هجمات المبشرين يرى فى عقيدة البراهمو سماج مخرجاً من حيرته ، وأصبحت البراهمو سماج جزءاً من أسلوب الحياة الهندى ، وهى لم تمكن الهندوسية من الثبات أمام هجوم المبشرين فحسب بل ساعدت على تكوين الطريقة التى ينظر بها الهنود إلى مشكلات الهند .

فمنذ سنة ١٨٢٠ بدأت الهند تنشئ حضارة جديدة مكونة من عناصر شرقية وغربية ، ورام موهان رائد الهند الجديدة ، ففيه تمثلت الروح الحديثة وحبها لحرية الفكر ، وتعطشها إلى العلم ، وعطفها الإنسانى الجم ، واحترامها للماضى ، هذا الاحترام القائم على النقد البصير والتقدير السليم .

وقد جاءت إلى الهند روح الإصلاح من مصادر أخرى ، فى سنة

١٨٣٥ أعلنت حكومة الهند أن الهدف العظيم الذى ترمى إليه الحكومة البريطانية هو ترويج الأدب والعلم الأوربيين بين سكان الهند ، وسارت على الطريقة الأوربية فى تعليم الهنود، وكان اللورد ماكولى المؤرخ السياسى المشهور هو صاحب الفكرة والمدافع عنها والمحبذ لها ، وكان ماكولى يحتقر الثقافة الهندية احتقاراً شديداً ومن مأثور أقواله [١] «ليس لى علم بالعربية ولا بالسنسكريتية، ولكنى لم أجد بين المستشرقين رجلاً واحداً يستطيع أن ينكر أن رفاً واحداً فى مكتبة أوربية قيمة يساوى كل أدب الهند وبلاد العرب القومى ، وأعتقد أنه ليس هناك مبالغة فى أن كل المعلومات التاريخية التى جمعت من جميع الكتب المكتوبة باللغة السنسكريتية أقل قيمة مما قد يوجد فى أتفه المختصرات المستعملة فى المدارس الإعدادية بإنجلترا » وقد كان ماكولى مؤرخاً قديراً وكاتباً كبيراً وناقداً ممتازاً ولكنه جانب الصواب وبعد عن الحق فى هذا الرأى الفطير ، وقد قدر الثقافة الهندية تقديراً عالياً مفكرون أرجح منه وزناً وأعمق تفكيراً من مختلف الأمم الأوربية ، ومهما يكن من الأمر فإن ماكولى كان يقصد من وراء تعليم الهنود على الطريقة الأوربية وإشاعة العلم الأوربى بينهم محاربة الهندوسية ، والقضاء عليها ، وتمهيد السبيل لتغلب المسيحية ، وكان موفدو الإرساليات يرون صواب هذا الرأى ويقرونه عليه ، ولذلك تحمسوا فى فتح المدارس والجامعات فى مختلف أنحاء الهند ، وكانت دراسة الكتاب المقدس الزامية فى هذه المدارس والجامعات ، وقد أقبلت الطبقة المتوسطة فى الهند على التعليم فى

(١) راجع صفحة ٧١ من كتاب الأستاذ فيليبس عن الهند India. By C.H. Philips



اللورد ماكولي

اشتياق ورغبة ، وقرأت الأسفار المسيحية المقدسة ، ولكن انحلال المجتمع الهندوسي المنتظر لم يحدث ، وإقبال الهنود على الدخول فى المسيحية لم يتم ، وأفادت الهندوسية من العلم الجديد والمعرفة الحديثة ، وتشربتها ، وظهرت آثار ذلك فى التجديد الذى أدخل على الديانة الهندوسية ومحاولة تفسيرها تفسيراً يلائم العصر الحديث ، والديانة الهندوسية تشمل عقائد كثيرة ومعتقدات متنوعة ، ولكنها بما فيها البوذية قائمة على أساس الفيدانتا ، ومذهب الفيدانتا مفصل فى ثلاثة أصول ، وهى البراهما سوترا والأوبانيشاد والجيتا ، وهذه هى المصادر التى يرجع إليها دعاة كل مذهب جديد لتأييد دعوتهم .

ولم تكن الهند الجديدة فى حاجة إلى ظهور طائفة جديدة ، وإنما كانت فى حاجة إلى ديانة عامة يقبلها الهندوس جميعاً ، وأول من قام بمجهود لإيجاد أساس لهذا الدين الشامل هو ديانندا سارا سواتى ، وكان يرى فى أسفار الفيد أنها وحى من الله ، ويشعر بأن الديانة التى تستمد من الفيدا يقبلها الهندوس كلهم ، لأنهم يؤمنون بما ورد فى الفيدا ، وقد رأى المسلمين يرجعون فى أمور دينهم إلى القرآن ، والمسيحيين يعتمدون على الكتاب المقدس وأنه يمكن معالجة الضعف الذى منيت به الديانة الهندوسية برجوع الهندوسيين إلى كتاب جامع يعد من الكتب المنزلة ، وبدا له أن هذا هو الطريق السوى ، وزاده تعلقاً بهذه الفكرة أن أسفار الفيدا ليس فيها ما يؤيد نظام الطبقات ، وليس فيها ما يمنع زواج الأرامل ولا ما يقر وجود المنبوذين وما يحرم أصنافاً خاصة من الطعوم ، كما فى الهندوسية الشائعة التى هاجمتها الإرساليات

الدينية ، وضاق بها المستنيرون من الهنود .

وقد قام سوامى ديانندا فى كتابه المسمى ضوء المعنى الحق بمحاولة جريئة بارعة ليرى فى أسفار الڤيدا كل ما يقول المسيحيون والمسلمون إنه أساس ديانتهم ، وهو الأخوة العامة ومعرفة الله بغير طريق فلسفة ما وراء الطبيعة ، وقد نجحت شيعته المسماه آريا سماج فى حماية الهندوسية من هجمات الإسلام والمسيحية ، ولكن لم يستجب لها الهندوس فى خارج البنچاب ، وكان السبب فى ذلك أن محاولة الرجوع إلى أسفار الڤيدا تتضمن إنكار الثقافة الهندية التى شاعت فى الثلاثة الآلاف سنة الأخيرة وإنكار للسنن والتقاليد التى أوجدها الفكر الهندوسى فى العصور الوسطى ، وكل ذلك كانت جماعة آريا سماج تنبذه بغير تردد وتهاجمه بدون تحفظ ، والهندوسى بطبيعته لا يميل إلى إنكار حقيقة أى دين من الأديان ، ولذا رأت غالبية الهندوس فى مذهب آريا سماج شيئاً من التشدد والتعصب ، ولم تنتشر حركته فى سائر أجزاء الهند وظل تأثيره مقصوراً على نواحى دلهى والبنچاب .

وكان الهندوسيون يشعرون بحاجتهم الماسة إلى عقيدة تجمع عقائدهم المختلفة وتوحد مذاهبهم ، ولم يجدوا هذه العقيدة فى مذهب البراهمو سماج ، وقد راقتهم فترة من الزمن جهود الجمعية الزيوسوفية التى أوجدها فى الهند الكولونيل أولكوت الأمريكى ومدام بلاڤتسكى الروسية ، ومال الهندوس المتعلمون إلى تعاليم الجمعية التى أدخلت فى الهند أساليب الدعاية الدينية الأوربية ونظمها ، وكان تفسيرها للديانة الهندوسية يتبع سنن المحافظين ، وكثيرون من زعمائها كانوا من الهندوس المعروفين بشدة المحافظة.

وكانت الذيوسفية الهندوسية حركة هندية شاملة أثرت فى وجهة نظر الجيل الناشئ ، ولما أصبحت السيدة آنى بيزانت رئيسة الجمعية وهى امرأة موهوبة قامت الجمعية بدعوة واسعة النطاق لإصلاح الهندوسية ، وعمل على تنفيذ هذا الإصلاح فى المدارس والجامعات ، وألفت الكتب وكتبت الفصول لمتابعة الإصلاح وتأييده ، وقد كانت السيدة آنى متعمقة فى دراسة الثقافة الهندية .

وقد وجد الإصلاح الهندوسى نصيراً له قوياً وشارحاً لأصوله ممتازاً فى شخص سوامى ڤيڤكانندا ، وقد كان بنغالياً تلقى تعليماً غربياً وتأثر بالمفكر المتصوف راما كرشنا ، أحد الذين أثروا فى المجتمع البنغالى تأثيراً بالغاً ، وكان ڤيڤكانندا يرغب رغبة قوية صادقة فى إحياء الهندوسية وتنقية تعاليمها الدينية والسياسية من الشوائب ، وقد زار أمريكا زيارة طويلة ، وزار بريطانيا ، وقد ألهبت هاتان الزيارتان وطنيته ، وقوتا رغبته فى إيجاد هدف اجتماعى للهندوسية ، وقد أعلن أنه لا يؤمن بدين لا يكفكف دموع الأرامل ولا يأتى بالخبز إلى أفواه اليتامى ، وسئل مرة عن رسالته فأجاب « إن هدف الحركة التى أقوم بها هو إيجاد الأسس العامة للهندوسية وإيقاظ الوعى القومى لهذه الأسس » وقد ذهب إلى أن هذه الأسس موجودة فى أسفار الڤيدانتا ، وأخذ يفسر هذه الأسفار تفسيراً سهلاً ، ويبشر بما فيها فى جميع أنحاء الهند ، وقد شاركه فى الدعوة إلى استخلاص أسس العقيدة الهندوسية من أسفار الڤيدانتا كثيرون من علماء الهندوس الذين لم يكن لهم مذهب خاص ولا شيعة معروفة ، والواقع أن الرجوع إلى أسفار الڤيدانتا

لتجديد الهندوسية فى أواخر القرن التاسع عشر كان حركة دينية لها دلالة قومية ، وهدف وطنى ، وظهر فى أواخر تلك الفترة المفكر الهندى ، البارز أوروبندو ، وشرح أسفار الڤيدانتا شرحاً وافياً ، وقد أعادت هذه الجهود المتوالية إلى أسفار الڤيدانتا مكانتها باعتبارها الأساس العام للتفكير الهندوسى الدينى جميعه .

وقد كان هذا الإصلاح الدينى تمهيداً مناسباً لإصدار قانون بإلغاء زواج الأطفال الذى كانت تعده الجماعات الهندوسية جزءاً من ديانتهم ، وسمح للأرامل بالزواج ، وخففت فروق الطبقات ، ولطفت حدتها ، وأبيح لطبقة الأنجاس دخول المعابد ، ووضعت الهبات الدينية تحت سيطرة هيئات عامة ، واتخذت حركة النهوض بالطبقات المضطهدة طابعاً قومياً ، وأصبحت مشاركتهم فى الحياة السياسية الاجتماعية عاملاً هاماً فى أواخر عهد الحكم البريطانى ، وقد قوى شأن الديانة الهندوسية ، وتجددت حياتها ، وقد كان سبب ضعفها وتكاثر الخرافات فيها تأبيها على الإصلاح وجمود عقائدها ، فلما أتيح لها المصلحون الأعلام استردت حياتها واستعادت قوتها .

وكثير من النظم التى كان يظن أنها جزء من الديانة الهندوسية لم تكن فى الحقيقة كذلك ، وإنما كانت نتيجة لبعض الملابسات التاريخية والعوامل الاجتماعية ، وقد أيدها القانون ولكنها لم تكن أصلاً من أصول الدين ، وقد أوضح ذلك ڤيڤكاناندا فى قوله « لقد ظن كل إنسان خطأً ابتداءً من بوذا إلى رام موهان روى أن نظام الطبقات أصل من أصول الدين ، ولكن

بالرغم من هذيان القساوسة فإن نظام الطبقات نظام اجتماعى متبلور وقد أدى وظيفته وأصبح بعد أداء تلك الوظيفة يملأ جو الهند بالعفن » ونظام الطبقات وحقوق الميراث وما إلى ذلك من النظم التى ميزت الديانة الهندوسية كانت فى الأصل نظماً قانونية دينية ولم تكن نظماً دينية ، فهى قوانين من صنع الإنسان وليست لها صفة القداسة ، أو السند الدينى ، وإنما تستمد قوتها من القوانين التى صنعها الإنسان ، ولم تشترك فى صنعها الكنيسة و رجال الدين ، وقد كانت هذه القوانين ملائمة لزمانها ، ولكنها بمرور الزمن أصبحت لا تناسب العصر الحاضر ، وإنما وجد التشريع ليضع القوانين الموافقة للعصر وأحواله ، فإذا تغير العصر وتبدلت الأحوال استلزم الأمر بطبيعة الحال تعديل تلك القوانين أو إلغاءها جميعاً ، والتقصير فى ذلك يعطل حركة التقدم ، ولا تؤمن عقباه بوجه عام ، فهو مدعاة للتمرد والثورة ، لأن للضرورات الاجتماعية أحكامها وللظروف المتغيرة سلطانها ، وقد كانت قوانين الهندوسية تمثل قوى عصرها الاجتماعية ولكنها بمرور الزمن أصبحت عتيقة بالية وفى حاجة إلى أن تستبدل بها قوانين أخرى جديدة ملائمة ولكن لم يكن من الميسور فى كل عصر قيام الرجال الذين أوتوا من قوة العزم ونفاذ البصيرة ما يكفى للإقدام على نسخ تلك القوانين وفرض قوانين جديدة مناسبة لحاجات العصر ، وكان الشراح والمفسرون يحاولون معالجة هذا النقص فيتوسعون فى التعليل والتأويل ، ويحتالون ويداورون لمسايرة روح العصر والتوفيق بين القديم والحديث ، ولم يكن فى وسع مفكرى الهندوسيين غير ذلك فى عصور الضعف التى توالت على الهند وفقدانها النفوذ السياسى ،

وعدم الاستقرار السياسى بالهند مكن لتلك القوانين القديمة ولم يتح الفرصة فى أغلب الأحايين لقيام المصلحين الأشداء الذين يتولون تغييرها وسن قوانين غيرها ، ولذا ظل المجتمع الهندوسى ردحاً من الزمن تسيطر عليه قوانين قديمة غير ملائمة ومعطلة لتقدمه حتى قدر للمصلحين من الهنود أن يتأثروا بالثقافة الغربية ويتولوا حركة الإصلاح فى عزم وبصيرة .

ولما سيطر البريطانيون على الهند جميعها وأخضعوها من أقصاها إلى أقصاها لإدارة واحدة حاولت سلطات شركة الهند الشرقية الإصلاح الاجتماعى ولكنها سرعان ما تراجعت بحجة التزام الحياد فى المسائل المتصلة بالدين خشية إثارة الشعور العام وإحداث اضطراب ، وربما كان ذلك من الخير لأن الدافع للإصلاح الاجتماعى يحسن أن يأتى من داخل الشعب نفسه لا من الخارج .

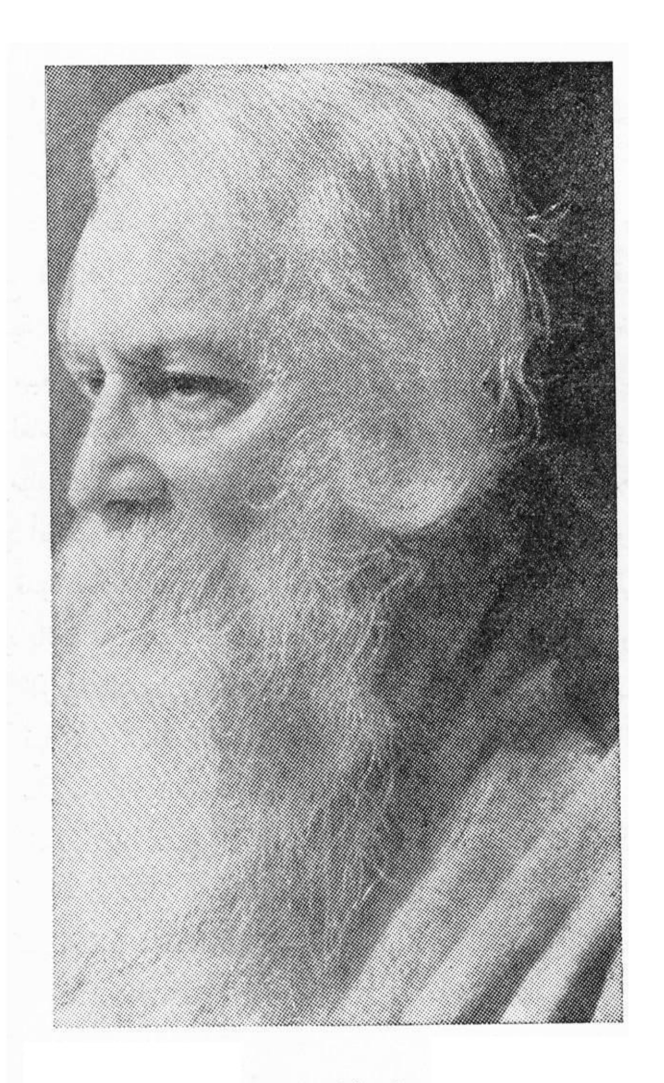
ولم يبدأ الإصلاح التشريعى فى الهند إلا بعد الحرب الكبرى ففى ظل الحكم الذاتى الجزئى الذى أدخل إلى الهند فى سنة ١٩٢١ أسس مجلس تشريعى مركزى أكثرية أعضائه من الهنود المنتخبين غير الرسميين وقد استطاع هذا المجلس تغيير قوانين المجتمع الهندوسى وأن يلزم الهندوسيين اتباع القوانين الجديدة ، وقد رفع سن زواج البنات إلى بلوغهن السنة الرابعة عشرة من عمرهن ، وأجاز الزواج بين رجال ونساء من طبقات مختلفة ، وأبطل ذلك عمل القوانين التى كانت تحرم تزاوج الأفراد من الطبقات المختلفة ، وقد كانت العادة المتبعة فى الهند منذ أكثر من ألفى

سنة هى زواج البنات قبل سن البلوغ ، وكانت هذه العادة من التقاليد المتبعة التى لا سبيل إلى مخالفتها وقد عدها التشريع الهندى عادة ضد القانون ، وأصبح من يقدم عليها يعرض للقصاص ، ولا ريب فى أن للتعليم الغربى أثره الواضح فى هذا التحول ، وقد اتجهت محاولات شركة الهند الشرقية الأولى فى التعليم نحو إحياء الدراسات السنسكريتية والعربية ، وكانت دراسة اللغة الإنجليزية اختيارية وبدأت بعض الكليات التابعة للبعثات الدينية تروج الثقافة الغربية ، ولكن فى سنة ١٨٣٥ وبتأثير ماكولى بدأت الشركة تعمل على تعليم الهنود تعليماً إنجليزياً وكانت حجة ماكولى فى ذلك أن المبلغ المخصص للتعليم يجب أن ينفق فى أحسن وجوه التعليم ، وأن معرفة اللغة الإنجليزية خير من معرفة اللغة السنسكريتية أو اللغة العربية ، وأنه يمكن جعل الهنود متمكنين من اللغة الإنجليزية وأن الجهود يجب أن تتجه لتحقيق ذلك ، وقد قبلت الحكومة الهندية وجهة نظر ماكولى ، وجعلت هدفها نشر الأدب والعلم الأوربيين فى أرجاء الهند ، وكان المفكرون الهنود التقدميون يوافقون على ذلك ويرحبون به ، وكان زعماء الهند فى طليعة من طالبوا أن يكون التعليم على الأساليب الغربية ، وبدأت الحكومة تنشىء المدارس والجامعات فى حواضر الولايات الهندية ، وأعلنت الحكومة أنها لا تريد إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغات القومية ، وأنها ترى ضرورة العناية باللغات القومية ودراستها ، وتبع ذلك إيجاد جامعات فى حواضر الولايات الهندية ، مثل كالكوتا وبومبى ومدراس والله أباد واتسع المجال لجهود الإرساليات الهندية .

ولم تغير الهند بعد أن نالت استقلالها طريقة التعلم تغييراً جوهرياً ، ولا تزال اللغة الإنجليزية فى معظم الجامعات والكليات وسيلة التعليم ، وقد كان لهذه التجربة التعليمية عيوبها ومحاسنها ، فمن عيوبها أنها كانت توجد هاوية عميقة بين الذين يتلقون التعلم على الطريقة الإنجليزية وغيرهم من الشعب . وكان الطلبة يبذلون جهوداً شاقة لإجادة اللغة الإنجليزية ودراسة موضوعات الدراسة بها ، وكانت العناية بالدراسات الأدبية هى الغالبة ، ولم يكن من السهل فى أول الأمر جعل الثقافة الغربية ملائمة لجو الحياة الهندية ، وقد أخرجت فى بداية عهدها رجالاً من الهنود يحسنون معرفة الإنجليزية ولكنهم عقماء فى تفكيرهم ، وغير منسجمين مع بيئتهم ، ومزايا هذا اللون من التعلم بوجه عام ترجح عيوبه ، فقد مكن الهنود من مناهل الفكر الغربى ، وحفزهم إلى إصلاح أحوالهم الدينية والاجتماعية ، ومهد السبيل للثورة الاجتماعية الدينية التى قامت عليها حياة الهند الحديثة ، وإذا كانت الإدارة البريطانية لم تبذل مجهوداً يذكر فى تحرير روح الهند ، والقضاء على الأوهام والخرافات والعادات السيئة فإن التعليم الحديث الذى نقل إلى الهند بطريق اللغة الإنجليزية تكفل بهذا العمل ، ونجح فى أداء هذه المهمة ، فمدارس الهند وجامعاتها كانت تعلم الناس فكرة الحرية فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة تعمل على خنق الحرية ، ولو كان التعليم الحديث نقل إلى الهند عن طريق لغاتها القومية المتعددة لاختلفت قوة حركة التحرير فى جهات الهند المتنوعة تبعاً لمرونة اللغة السائدة وطواعيتها أو جمودها وعجزها عن استيعاب الفكر الحديث ، وكان مجىء الإصلاح الهندوسى أمراً محتوماً ، ولكن تعدد اللغات كان يعرقل حركته ، ويبطئ سيره ، ولا يجعله

إصلاحاً عاماً شاملاً لكل نواحى الهند ، وتلقى العلوم العصرية بلغة واحدة جنب الهند هذه المشكلة ، وأوجد تشابهاً عقلياً ولوناً من ألوان الوحدة فى التفكير مكن الهند من أن يكون لها لغة واحدة مشتركة للتفكير السياسى والعمل السياسى ، والأهم من ذلك كله أنه أحدث تقارباً فى الأفكار والمشاعر كان له أقوى أثر فى خلق القومية الهندية ، والعقل الهندى الهندوسى متأثر من غير شك بالتقاليد القديمة الهندوسية وبالأفكار الحديثة التى روجتها التربية العلمية التى أتاحتها اللغة الإنجليزية للهند .

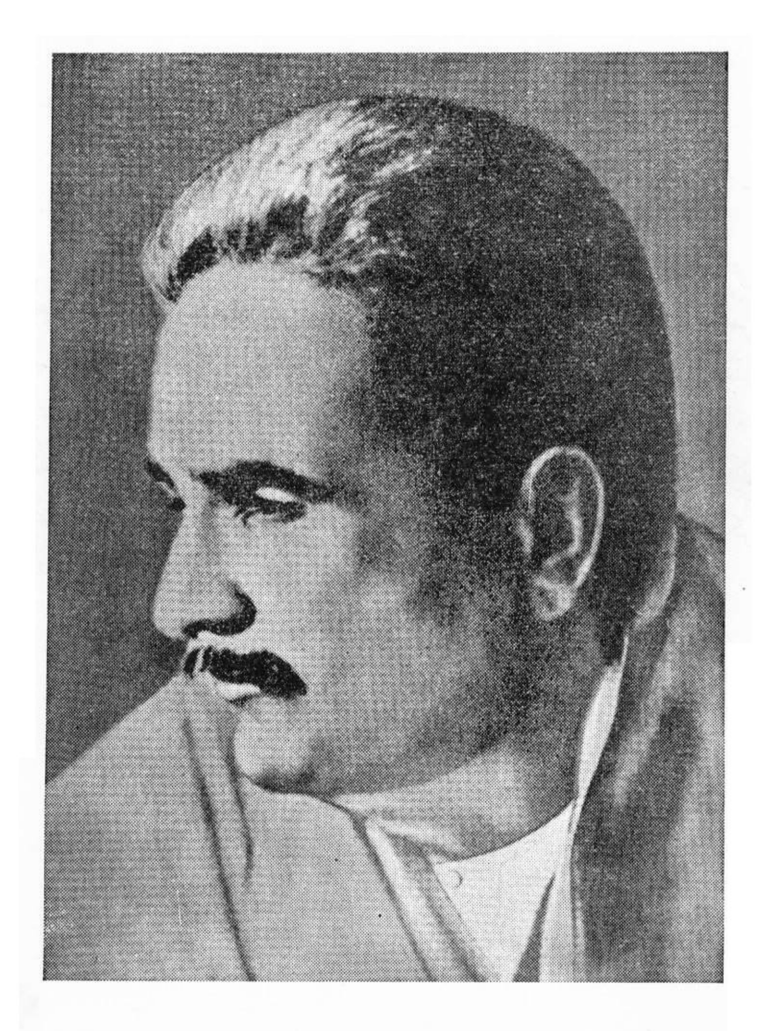
وقد تمكن الهنود عن طريق اللغة الإنجليزية من الإطلاع على حركة الاستنارة فى أوربا والوقوف على آثار كبار مفكرى الغرب ، وأخذوا عنهم فكرة الحرية والمساواة والأخاء ، وتبنت الهند الكثير من الأفكار الحرة التى أخذتها من الغرب ، وقد كان الإنجليز فى بادئ الأمر يسخرون من الوطنيين الذين يتكلمون لغتهم ، ويحاكونهم فى سلوكهم ، ويتشبهون بهم فى تفكيرهم ، ولكن الأفكار الغربية تأقلمت فى الهند ، واختلطت بالنفوس ، وأمكن الملاءمة بينها وبين الأفكار المستمدة من الأسفار الهندية القديمة ، والعقائد الدينية المقدسة ، وقد نشأت فى مطالع تلك الحركة نزعتان كما هى العادة فى أمثال هذه المواقف ، نزعة ترمى إلى ترك الماضى والتعفية على آثاره وتقبل الحضارة الغربية بحذافيرها ونزعة ترمى إلى جعل التراث القديم ملائماً للعصر الحاضر ، وتوسيع أطرافه ، وتجديده وإصلاحه وتهذيبه ، وقد كانت الغلبة للنزعة الثانية ، ولقد أراد الغرب أن يدخل الهند فى الديانة المسيحية ويصبغها بالصبغة الغربية ،



رابندرانات تاجو

ولكن أرادت الأقدار أو طبائع الأشياء أن تكون الثقافة الغربية حافزاً للهند على معرفة نفسها واستعادة تالد مجدها .

وقد أفادت شتّى لغات الهند القومية من الثقافة الغربية ، وتجددت واتسع فيها المجال للتفكير والإنتاج الفنى ، وظهرت آثار أدبية قيمة باللغة الهندية التى يتكلمها أكثر من مائة مليون نسمة ، وباللغة البنغالية وهى لغة سبعين مليوناً من سكان الهند ، وباللغة الجوجيراتية واللغة المراثية وغيرها من لغات الهند ، وأكثر الذين يحكمون على مجهود الهند الفكرى يرجعون إلى مؤلفات الكتاب الهنود التى كتبت باللغة الإنجليزية ، ولكن النقاد الهنود أنفسهم يرون أن أمثال هذه المؤلفات تنقصها الطرافة ، وأن الحكم على قدرة العقل الهندى الحديث من الأشعار والفصول الأدبية التى يكتبها الهنود باللغة الإنجليزية ليس كافياً وينقصه الدقة والاستيفاء ، وذلك لأن تأثير التربية الإنجليزية والثقافة الأوربية فى العقلية الهندية لم يظهر واضحاً جلياً فيما كتبه الهنود باللغة الإنجليزية وإنما ظهر فى أعمال أمثال تاجور وإقبال وبوذا ديڤابوز وشاترجى وغيرهم من مبرزى الكتاب الهنود الذين رفعوا مستوى اللغات الهندية الأصلية وزادوا ثروتها الفكرية ، وقد لمح الغرب جانباً من آثار هذا التجديد الادنى فيما نقل إلى الإنجليزية من كتب شاعر الهند العظيم تاجور ، وقد صور تاجور فى كتبه اتجاهات الحياة الهندية الجديدة ، ولم يقتصر تأثير عبقرية تاجور على الأدب البنغالى وحده ، وإنما شمل الهند جميعها ، على أن تاجور مع سمو عبقريته وعظيم مكانته لم يكن الوحيد فى الأدب الهندى الحديث ، فقد عاصره



الشاعر الفيلسوف محمد إقبال

فى الهند كتاب آخرون مبرزون وشعراء موهوبون فى لغات الهند المختلفة ، وكانوا جميعاً تحدوهم الروح القومية على خلق أدب قومى يعبر عن حياتهم ومنازع نفوسهم ، وفى طليعتهم محمد إقبال الذى يعبر شعره عن الروح الوطنية والتمرد على الأوضاع البالية والشاعر سيرامانيا بهاراتى .

وفى فترة ما بين الحربين تجلى فى الأدب الهندى أثر القلق الاجتماعى واتجه الكتاب والشعراء إلى الأدب الواقعى ، وقوى الإعجاب بابسن ودستوفسكى وشيكوف ، وظهرت روايات وأقصوصات تعبر عن هذه النزعة ، وهكذا استطاع الهنود بما فطروا عليه من حب المسالمة وكراهة العنف أن يفيدوا من الثقافة الغربية فى تنقية معتقداتهم من الشوائب ، وإصلاح أحوالهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والملاءمة بين الفكر الحديث والآراء القديمة بدون رجة عنيفة وثورة حاطمة .

سياسة الهند

تواجه الهند فى عهدها الحاضر مشكلات كثيرة اقتصادية وسياسية واجتماعية شأن الدول التى استردت حريتها بعد طول الجهاد ، وقد استدعى اتساع الخلاف بين حزب المؤتمر الهندى وحزب الرابطة الإسلامية تقسيم الهند إلى حكومتين حكومة الهند وحكومة الباكستان ، وقد قضت الضرورة بهذا التقسيم لتجنيب الهند شرور الحرب الداخلية وخطر الخلافات الدينية،والمأمول أن ضخامة المشكلات التى تواجه الدولتين الجديدتين سيكون لها أثر بالغ فى التقريب بينهما وتهوين دواعى الفرقة والخلاف ، والدولتان تخوضان معركة طاحنة ضد الفقر والجهل والمرض ، ومشكلة تزايد عدد السكان التى تزداد شدة مع توالى الأيام تستدعى تضافر الجهود، وفى طليعة الأسباب التى دعت مسلمى الهند إلى طلب الانفصال خوفهم من سيطرة الهندوسيين بعد أن زالت سيادة البريطانيين ، واستقلال الهند والباكستان يتيح للدولتين أن يعرفا نفسيهما ، ويفسح لهما طريق التقدم والإصلاح ، ويمهد السبيل فى المستقبل لإزالة سوء الظن ، وإيجاد حسن التفاهم والصداقة والتعاون المنتج ، وعلى رأس حكومة الهند فى العصر الحاضر شرى جواهر لال نهرو ، وهو فى طليعة تلامذة الزعيم الهندى العظيم المهاتما غاندى ، ومن مريديه والمعجبين به ، والمتشبعين بمبادئه ،

وهو رجل إنسانى النزعة ، واسع الأفق ، ميال إلى الاشتراكية المعتدلة ، وقد أثبت فى مواقفه المختلفة والسياسة التى يسير عليها أنه مخلص لبلاده وللشرق وللإنسانية جميعها ، وسياسة الابتعاد عن الأحلاف التى ينادى بها ويؤيدها أوضح دليل على نزعته السلمية ، وهى السياسة السلمية التى تكفل للإنسانية البقاء بعد أن أصبح تقدم الأسلحة الذرية ووسائل التدمير ينذر العالم بالفناء ، وهى نفسها السياسة التى تحبذها مصر ، وتدعو إليها ، وتؤمن بها ، وقد جاء فى البيان المشترك الذى وضح موقف مصر والهند من الكتلتين الشرقية والغربية « إن الأحلاف العسكرية وتكتيل القوى التى تزيد التوتر والتسابق فى التسليح لا تكفل السلامة فى أى دولة » كما أشار إلى أن عصر الذرة يستلزم «تقييد استعمال الأسلحة ذات التدمير واسع النطاق » . وأكد البيان أن السعى بالمفاوضة والوسائل السلمية لمنع الحرب أهم من تقييد السلاح ، وقد كانت المحالفات العسكرية والتكتلات الدولية فى مختلف أدوار التاريخ باب الشر ، ومدرجة الحرب ، وحجة يتذرع بها الأقوياء لفرض سلطانهم على الضعفاء ، والمحالفة العسكرية بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة تتضمن التسليم للدول الكبيرة بحق الإشراف على الدول الصغيرة وتوجيه سياستها وتوريطها فى خصومات لا ضرورة لها ولا فائدة منها ، وليس فيها ضمان لاستمرار التفاهم والوئام بين المتحالفين لأن القوى فى أغلب الأحيان يفسر نصوص الاتفاق لمصلحته ، والأمم الشرقية بابتعادها عن سياسة الأحلاف تؤكد استقلالها وتصون كرامتها ، وتؤيد قضية السلم ، وهى القضية الكبرى الجديرة بأن

تتضافر جهود الدول جميعاً على تأييدها ومناصرتها ، وسياسة مصر والهند فى هذا الصدد هى السياسة الشرقية الإنسانية الملائمة لروح العصر ، وحاجة الحضارة الراهنة ، وهند العصر الحاضر دولة مستقلة ضخمة لها أهميتها بين الدول الأسيوية خاصة ودول العالم عامة ، ولها مواردها الهائلة ، وإمكانياتها العظيمة ، ومن ثم يهمها ما يحدث فى جميع أنحاء العالم ، وقد كانت معنية بالأحوال العالمية قبل نيل استقلالها ، ولا ريب فى أن تبعات الاستقلال تزيدها اهتماماً بالشئون العالمية .

وقد كان أول ما وجهت إليه الهند المستقلة اهتمامها هو أن تقيم بناءها على أسس متينة ، وأن تنأى بنفسها عن الخوض فى الأمور التى لا تعنيها ولا تؤثر فيها تأثيراً مباشراً ، وكان ثقل الأعباء التى ألقيت على عاتقها بعد الاستقلال يفرض عليها هذه السياسة ، وقد عملت الهند على الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع سائر الدول .

والهند عضو فى هيئة الأمم المتحدة ، وقد اشتركت فى المناقشات التى دارت فى جلسات تلك الهيئة وبخاصة المناقشات التى كانت تمس الأمم الأسيوية ، وقد استطاعت أن تحتفظ بتوازنها ورباطة جأشها فى معترك السياسات المتعارضة والأهواء الثائرة .

وتستمد الهند سياستها السلمية من ماضيها التاريخى العريق ، وحركتها القومية الطريفة ، ومن مثلها العليا ومبادئها التى نادى بها زعماؤها .

وتعمل الهند على أن تتعلم الكثير من الغرب ، ولكن مع الاحتفاظ بمقومات كيانها ، فهى تأخذ من الحضارة الغربية ما يلائمها ويصلح لها ،

وتبذل جهدها فى رفع مستوى الحياة لسكانها ، لأن نيل الاستقلال لابد أن يقترن بتيسير أسباب الحياة الصالحة ، وتحسين الأحوال الصحية ، والنهوض بالتعليم ، والإكثار من الإنتاج ، والتوزيع العادل ، وهى تعتمد فى ذلك على نفسها ، ومن أقوال الباندت جواهر لال نهرو فى إحدى خطبه « لانود أى مساعدة مادية فى مقابل التنازل عن أى جزء من حريتنا التى جاهدنا لنيلها » وقد أوجز سياسة الهند الخارجية فى قوله فى الخطبة التى ألقاها بنيويورك فى ١٩ أكتوبر سنة **١٩٤٩** « أهداف سياستنا الخارجية هى المحافظة على السلام العالمى ، وتوسيع نطاق الحرية الإنسانية ، وقد أثبتت مأساة الحربين عدم جدوى الحرب ، والانتصار الذى لا يقترن بالرغبة فى السلام لا يؤدى إلى نتيجة باقية دائمة ، والمنتصر والمهزوم يشقيان على السواء من جروح عميقة بالغة وخوف مشترك من المستقبل » .

فالحرص على السلام فى عالم كثرت فيه بواعث الخلاف وأسباب الشر هو أكبر أهداف السياسة الهندية ، وهو يفسر لنا موقفها المعروف بين الكتلتين المتناظرتين ، وماضى الهند وحاضرها جديران بأن يجعلاها فى طليعة الأمم التى تحمل رسالة السلام فى العصر الحاضر .

حسن يوسف الحوشي

فهرس